مدونة ابو عبدو

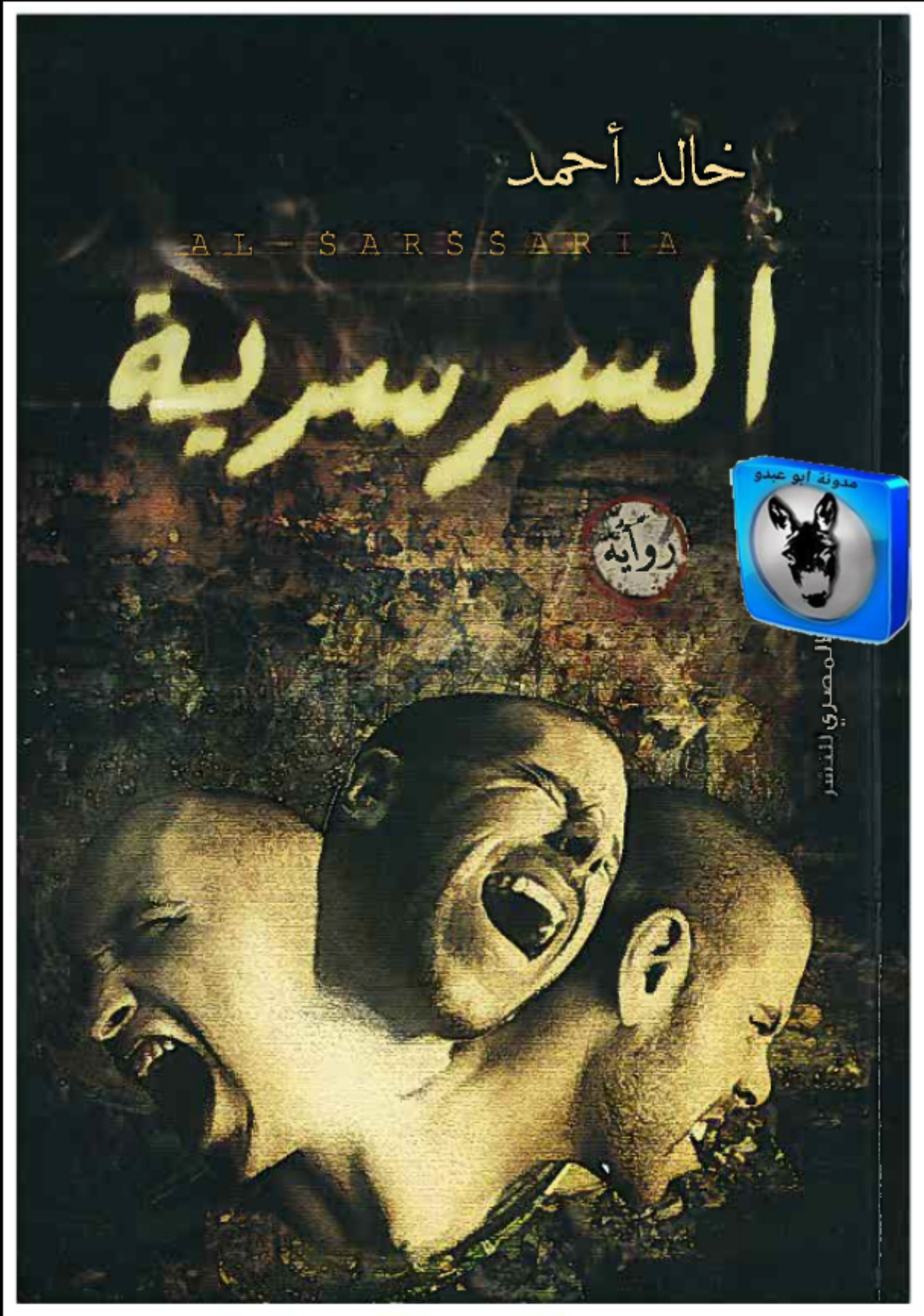

السرسرية

السرسرية
خالد أحمد

الطبعة الأولى ٢٠١١
حقوق الطبع محفوظة

دار المصري للنشر والتوزيع

دار السلام، القاهرة
ت: ٠١٨٢٣٤٣٨٧٩
٠١٤٦٣٣٥٠٩٨
Email: elmasrypublishing@gmail.com
المدير العام: يوسف ناصف

المراجعة اللغوية: سارة سرحان
الغلاف: عبد الرحمن الصواف
رقم الإداع: 2010/23908
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6378 - 17 - 9

السرسرية

خالد أحمد

"هو لم يمت بطلًا

بل مات كالفرسان بحثًا عن بطولة

لم يلق طول الطريق سوى اللصوص

حتى الذين ينددون كما الضمائر باللصوص

فرسان هذا العصر

هم بعض اللصوص"...

نجيب سرور

-١-

تم فصلي نهائيًا من كليه الفنون التطبيقية، وكان عليَّ مواصله العيش في القاهرة كي لا أصدم أبي وأمي بالحقيقة، تركت السكن الجامعي الخاص بجامعة حلوان وبحثت عن مسكن آخر يناسب دخلي الضعيف، ووجدت بعد أيام من البحث المضني أنا ومجموعة من أصدقائي تلك الشقة الحقيرة في شارع جانبي يخرج من شارع جانبي يخرج بدوره من شارع آخر، وإن تمكنت من الخروج من المتاهة تصل في نهاية الأمر إلى شارع الملك فيصل بالجيزة، كان إيجار الشقة مائة وعشرين جنيهًا شهريًا؛ أي أربعة جنيهات في اليوم، ورغم الأثاث القديم المهترئ، والأجهزة الكهربائية التي لا تعمل، وحجمها المتناهي الصغر إلا أنها كانت الحل الأمثل بالنسبة إلى ظروفي، خاصة وأني قد أوهمت أهلي أني في العام الثالث في الدراسة الجامعية. بحثت عن عمل دون جدوى، وانتهى بي الحال أن أجتمع مع أصدقائي حول جوان حشيش أو كنز من السقارة، ولا أفعل شيء سوى إنفاق النقود التي تصلني من البلد كل أول شهر. كنت أشعر بفراغ قاتل في معظم الأوقات، وذات يوم كنت أبحث عن جوان حشيش متأكد من أني خبأته هنا أو هناك، وجدت ثلاثة كشاكيل

تغطيهم طبقات من التراب - وكان التراب هو الشيء الوحيد الذي لا ينفد من تلك الشقة - تركتهم وأكملت بحثي عن الجوان وحين يئست من العثور عليه، وبدأ إحساس الملل يتسرب من جديد، قررت أن أدفع عن نفسي تأنيب الضمير ومراجعة الخطة، أو احتمال العودة إلى البلد وبدأت أقرأ الكشاكيل. كان الخط رديئًا والكلمات مبعثرة، غير أن الحروف في أغلب الكلمات غير مكتملة أو خاطئة، وكان عليَّ أن استنتج معنى بعض الكلمات، واحتوت تلك الكشاكيل على آلاف الألفاظ النابية حيث كانت هناك بعض الصفحات لا تحتوى على سواها.

الكشكول الأول

لم أكن مطمئنًّا حين دق باب الحجرة تلك الدقة الهادئة،كنت قد انتهيت من عد النقود التي ادَّخرتها، و لم يكن باب تلك الحجرة قد دق من قبل. خبأت سكين تقشير القصب خلف ظهري، وتحركت بين الأجولة والأقفاص المكدسة فوق الأرضية، فتحت الباب بحذر، ورأيت وجهًا أسمر ذا لحية كثيفة، و لم أتعرف في البدء على صاحبه، فاحترت.. هل أرشق سكيني في صدره مباشرة ثم أتبين من هو، أم أتبين من هو ثم أرشق في صدره السكين؟!! "ازيك يا غالي.. أدخل ولا معاك حد؟" عرفته وأشرت له بالدخول أدركت لحظتها أني كان يجب عليَّ قتله حين فتحت له الباب...

جلس على أول قفص اعترضه.. "ملهاش لزوم السكينة، أنا جاي اتكلم معاك، إلا لو ماكنتش ناوي تسمعني".. نظرت في وجهه الأسمر العريض وأنفه البارز لأتبين حقيقة ما يقول، إلا أن عينيه الناعسة لم تكن لتدل على أي شيء في أي وقت".. "خير إن شاء الله".. قلت وألقيت

بالسكين بين قدميه لأثبت له أني لا أخشاه.. فالتقط السكين ووضعها جواره: "ممكن أنام هنا؟"

– نعم؟

– نتكلم الصبح وهتفهم كل حاجة..

– تنام فين يا علي ما انت شايف..

وأشرت إلى خراب الغرفة التي انتزعتها بصعوبة من صاحب العقار الذي كان مدينًا لي بعشرة آلاف جنيه..

– أي حتة يابا.. ما احنا الرصيف شقق ضهورنا ولا انت ما انتاش عارف؟

– نام يا علي..

لا أعلم مصدر الهدوء الذي هبط عليَّ وجعلني أتعامل معه بهذا القدر من اللطف، ولا أعلم كيف وصل إلي بعد كل هذا الوقت، وفي ذلك المكان المنفي، تمددت على فراشي أداعب بيدي نشارة الخشب في أحد الأجولة، وحاولت تخيل أهداف "علي"، وأي نية يضمرها، وفاجأني حين سمعت صوت الشخير، وتصورت أنه يفتعله، فلا يمكن لأي عاقل تصور إنسان ينام بهذه السرعة ويغط في النوم في مثل تلك الوضعية.. فهو لم يتحرك من فوق القفص!

لم أحاول النوم بل تعمدت البقاء مستيقظًا متحفزًا لأي غدر يصدر منه و لم أتمكن من دفع فكرة قتله وهو نائم – إن كان نائمًا – قبل أن يقتلني، ولأطرد تلك الفكرة أخذت أتذكر طفولته حين كان زميلي في

المدرسة الابتدائية، وكان أفضل من يلعب الكرة في المدرسة، حتى أنه حين ردد إشاعة انضمامه للنادي "الأهلي" لم يجد من يكذبه، وكنت أنا ذلك الطفل الشرس المنبوذ، أجلس وحيدًا، أفطر وحيدًا، وأذهب للمدرسة وأعود وحيدًا، كنت هادئًا بطبعي وأميل إلى السلام، لكن كلما تعدَّى أحد خطوطي الحمراء عاد نادمًا، كنت أستخدم أظافري، رأسي، أسناني، ويدي في الشجار، و لم يكن شيء يوقفني قبل أن أرى بكاء عدوي، أما "علي" فكان محبوبًا من أغلب الأطفال، بل والمدرسين – رغم كونه لا يصلح للتعليم بأي شكل، كان نجمًا يمشي في فناء المدرسة الرملي، نجم في إلقاء النكات والقصص المثيرة، نجم في لعب الكرة الزلط والشراب والكاوتش، كان أسمر، عريض الوجه، واسع الجبهة، قليل الشعر، يبدو رأسه كصندوق خشبي، ويؤكد نظرية الصندوق أنفه الطويل النحيل– الذي يبدو وكأنه خيط ملتصق بالصندوق، وفمه المختفي، وعيناه الناعسة.

لا أدري تمامًا في أية لحظة نمت، لكني استيقظت مرتاعًا من فكرة أن أنام وهو موجود، والسلاح على مقربه منه، لكني رأيته نائمًا، وكان النهار قد انتصف، فأيقظته..

اجتاحت قَصَّة الكابوريا مدرستنا، وكنت لا أهتم لمثل هذه الأشياء، إلا أن تلك القَصة قد سحرتني، فخرجت من المدرسة مباشرة إلى الحلاق، لكنه صدمني: "روح هات جوز جنيهات".. خرجت أجر أذيال الخيبه اتحسر، طلبت المبلغ من أمي بعد تردد طويل، فصرخت في وجهي، بحثت عن مصدر للنقود و لم أنجح سوى في إيجاد الجورب الذي تخبئ أمي النقود به، أخرجت الجنيهان ودسستهم في جيبي، و لم أعرف كيف أو متى أصبحت بين قدميها؟ ويداها تتسابق على ظهري ورأسي ضربًا

موجعًا، وصراخًا وحشيًا.. "بتسرقني يا حرامي؟!!" أفلتُ من بين يديها بعدما أخرجت الجنيهان، وركضت إلى الشارع، لم أجد شيئًا أفعله أو صديقًا يؤانسني، فعدت إلى البيت بعد وقت قصير، كان أبي قد عاد وعلم بالقصة كلها...

– غالي..

ارتعدت حين سمعت صوته الخشن..

– إيه اللي أمك قالتهولي ده ياض؟ بتسرقني من إمتى ياله؟

وكان يشمِّر عن ساعديه وهو يتكلم، وكان ذلك دليلًا على "علقة" قادمة تبدو "علقة" أمي مقارنة بها مداعبة، فأخبرته بالأسباب الحقيقية لمحاولتي البائسة في السرقة، وانتظرت الصفعه الأولى، لا أعلم لم أعفاني من الضرب وقال:

– بعد كده أما تعوز حاجة قولِّي.. وإوعى تسرق حاجة من أمك.

أخرج ربع جنيه من جيبه...

– روح عند أبو تهاني هات موس.

عدت بالموس واستمتعت بإحساس الصابون على رأسي، ثم جلست أمام أبي لا أعلم تحديدًا ماذا يفعل، لكني أشعر بين الحين والآخر بالألم، وأوقن في أعماق نفسي أني غدًا سأكون "كابوريا"...

هالني المنظر حين نظرت في المرآة.. كانت رأسي نظيفة تمامًا من أي شعر.. لا يظهر فيها سوى خط أحمر من دماء ...

في المدرسة سمعت ضحكات خافتة وأصوات مكتومة من كل الأطفال، إلا طفلًا واحدًا ألصق شيئًا على رأسي، فحول الضحكات أمواجًا، والأصوات صراخًا، ركضت خلفه وأمسكت به، ففاجئني بلكمتين أو ثلاثة، لكني دخلت في حالة من عدم الإدراك حطمت فيها وجهه، ورأيت الدماء تخرج من رأسه حين انتزعني "الأستاذ" من فوقه، وانهال عليَّ بالخرزانة، بينما "زميلي" ملقًى على الأرض دون حراك.

كان هذا الزميل هو "علي" الذي استيقظ الآن ويدعك عينيه، وكانت تلك هي كل علاقتي بعلي في هذه السن، رغم ادعائه أن شيئًا من هذا لم يحدث.

– إيه اللي جابك يا علي؟

– مصلحة ليًّا وليك.

– وانت ييجي من وراك مصالح؟

– بص يا غالي.. أنا عارف إن اللي بينًّا مش خير.. بس أنا وابن عمي ع الغريب..

– ومين الغريب يا ابن عمي؟

– الشيخ خليفة..

أغبى إجابة أنتظر سماعها.. استفزَّني.. لكني واصلت...

– لو الشيخ خليفة فيها يبقى أنا الغريب.

– مش صح يا غالي.. أنا وانت صبيانه.

– أنا عمري ما كنت صبي ياله.

– ولا أنا كنت صبي.

– هات اللي عندك وقصّر.

أشعل سيجارة وعدّل من وضعية عضوه، ثم شرد للحظات وقال:

– صلي ع النبي، أنا طول عمري شغال مع الشيخ بما يرضي الله.. لا عمري كلت عليه قرش ولا نطيت على بنته..

استفزّني تمامًا...

– انت أحسن مني يا عم.

– مش القصد بس....

ابتسم ابتسامة باهتة.. أخذ نفسًا طويلًا من السجارة فوقع رمادها على قدمه.. فأحنى رأسه وقال وهو ينفض عن قدمه الرماد..

– ما عندكش حاجة تتاكل؟

لم يعد لدي مزيد من الصبر.. أمسكت رقبته بيد واحدة وأشهرت سبابة الأخرى في وجهه..

– يمين بالله إن ما قلت حاجة مفيدة لأخلص منك دلوقتي، وإنت عارف إني مبهوشّ..

قصّ لي قصة حول المخدرات والشيخ والنقود لم أقتنع بكلمة منها.. لكني استخلصت في النهاية أنه يملك كمية من الحشيش تقدّر بمائة

وعشرين ألف جنيه فصدمني المبلغ وقررت الإصغاء.. فسألته:

– والحاجة دي فين؟

– في الزمالك.. مخبيها في مكان أمين..

– ومخلصتش ليه منها؟ بِعتها يعني؟

– دي حاجة كبيرة ومتتباعش بالساهل، والشيخ هيقلب الدنيا عليَّا.. فأنا جايلك إنت عشان تخلصني من الحوار ده.. وتطلعلك مصلحة حلوة...

بعث فيَّ حنينًا لأيام خلت..

– وإنت فاكرني هبيع لحسابك؟ ما أنا وِش هاخد الحاجة منك واخلع.

– الحاجة كبيرة، والزمالك مرشَّقة حكومة.. هتمشي بيها لوحدك هتتسلِّم، أنا هادلَّك على واحد هناك تديهاله وتمشي.. هيبعتلي الفلوس وادِّيك نصيبك...

– والله؟ ما انت وِش هاتكلني وقليل إن ما دلِّيت الشيخ على مكاني..

– وأنا لو عايز أسلمك للشيخ هاحوَّر عليك الحوار ده كله؟ ما كنت جبته معايا وقصَّرت.. ولَّا خلصت عليك من ساعة ما فتحتلي الباب.. وانت عارف إني مش غلبان فيك..

– طب ما تروح إنت تسلم الحاجة.

ابتسم ابتسامة واسعة وكشف عن أسنانه الصفراء، وقال:

– إنت مالك مرعوب كده ليه ياض؟

الغرفه التي أسكن بها كانت – ولا تزال – مخزنًا، له منفذان، أحدهما شباكٌ مغطى بأسياخ حديدية يطل على السطح، وبعد الصعود سته طوابق وتسلق سلم خشبي يقودك إلى السطح، تجد المنفذ الآخر وهو الباب، أغلقت المنفذين وأحكمت الإغلاق بجنازير وأقفال، حبست "علي" بالداخل بعدما سمعت منه بعض التفاصيل، هبطت على السلم الخشبي ثم ألقيته على الأرض.. حطمت سبع زجاجات حاجة ساقعة ورششت الزجاج على الأرض، فإن أراد الهرب وتجاوز الجنازير والأقفال الحديدية لن يجد السلم الخشبي، فيضطر إلى القفز، فتصيبه الزجاجات في مكان ما في جسده.. أخذ الشك يزيد كلما تقدمت خطوة، وتكاثرت الأسئلة في خيالي لكني لم أترك نفسي لتلك الشكوك وتقدمت..

في البدء كنت مختلفًا، كنت شغوفًا بالتفاصيل.. مهتمًا بكل حدث أو قصة، و لم أكن أتمكن من السيطرة على أعصابي أو كظم غضبي، لم أكن أشترك في شيء.. فقط أكتفي بالسمع.. وكثيرًا ما تشاجرت باختصار.. كنت سريع الغضب.. عنيف.. وحيد.. وفقير...

تعرفت بـ"علي" من جديد في المدرسة الثانوية، وبحكم العدد المهول تم تقسيم الطلبة على الفصول وفقًا للأبجدية، فكنت زميل علي في الفصل لتتابع العين "على" والغين "غالي" في اسمينا.

بدأت بداية جديدة في تلك المدرسة، وحاولت صنع صداقات، فكنت كثير الكلام والحكي، وقصصي كانت مثيرة لأغلب الطلبة الذين يتوقون

لسماع أخبار المشاجرات الدموية والعاهرات والمخدرات، أما "علي" فكان الطالب مرهوب الجانب قليل الكلام سليط اللسان، يحمل في حقيبة كتبه المدرسية مطواة، لكنه كلما تبسط وتعامل معنا استحوذ على اهتمام الجميع، ووجدوا فيه الشاب الظريف خفيف الظل، وفي مشاحنة تقليدية بين علي وعبد اللطيف، سيطر عبد اللطيف – الشاب الضخم – في البداية وكال إلى علي اللكمات متلاحقة، إلا أنه أفلت بطريقة أو بأخرى، وتمكن منه، وفي لحظة تخيلت أنا – المشاهد – أن عبد اللطيف سيلقى حتفه، بعد أن تداخلت ملامحه وسال الدم من أغلب مناطق جسده و لم يتوقف علي عن ضربه، فتدخلت، وبحركة غير متوقعة دفعني علي بعيدًا، فاصطدمت بالحائط، و لم أدر إلا ورأسه بين يدي والحائط، أذهب برأسه للخلف قليلًا وأعود بها للحائط بسرعة، فقام أصدقاؤه وبعض المتعاطفين مع موقفي، فتحولت إلى معركة جماعية، فانشغلت للحظة بالمشهد، وأفلت من بين يدي، وبعد عشر دقائق تقريبًا تفرَّق الطلبة تحت وابل من ضربات العصي والخرازانات للأساتذة والناظر، شعر علي بالنصر، وأنه اكتفى مني، فتركني ملقًى على الأرض حتى لا تصيب الخرازانه هيبته، إلا أني زحفت إلى قدمه وأوقعته، واشتبكنا من جديد، و لم تفرقنا الخرازانات، ولا محاولات الفصل بيننا، لم ينجح أحد في رفع أحدنا عن الآخر إلا بعد عشر دقائق أخرى كنت أشعر بدوار رهيب، والدم يقطر من رأسي وأنفي وأسناني لكن عزائي كان في التعادل معه من حيث الإصابات والإجهاد وتوقيت الانسحاب .

أدرك كلانا بعد هذا الحادث أنه لا يقدر على الآخر ودارت الأرض دورتها، فصرنا أصدقاء.. لكننا لا نتوقف عن التنافس في الهروب من المدرسة.. استفزاز المدرسين.. أعداد الضحايا.. وتدخين المخدرات .

صار علي أول أصدقائي، وحين زارني أول مرة في البيت احتفت به أمي بشدة، وقد كانت ترثي لحالي دون أصدقاء، ولوحدتي الكاملة، كان أبي قد توفي وقتها بعدما أصابه سرطان الرئة، و لم يتعذب طويلًا من المرض، فعدم خضوعه لأي نوع من أنواع العلاج كثَّف الألم في مدة زمنية قصيرة وانتهى، كما أن أبو تهاني البقال الذي يسكن في نفس البيت – الذي ورثه أبي عن أبيه – بمستأجريه – قد أقعده المرض، وتولت تهاني العمل في ربيعها السادس عشر، لم تكن جميلة أو مثيرة، لكنها بشكل أو بآخر كانت متاحة، وكانت كل زيارات "علي" لي في البيت فقط ليقابل تهاني ويداعبها، فهي لم تكن تقبل أن تتعامل معه في الدكان، وتنهي أي محاولة منه بجملة: "ده مكان أكل عيش".. وكنت أنا وهو في بحث دائم عن الحشيش، ويدَّعي كلانا أنه يدخنه منذ زمن سحيق، وبرغم أن أول تجربة لي مع الكيف كانت داخل حمام المدرسة الثانوي، وكان المخدر بانجو، وسُطلتُ تمامًا من أول نفسين، لكني تظاهرت بالعكس، ثم دخنت الحشيش، وكاد يقضي على حياتي؛ فقد تسارعت دقات قلبي وتصببت عرقًا واجتاحتني رغبة ملحَّة في النوم، وكلما حاولت النوم شعرت بالاختناق والحر الشديد، فذهبت إلى الحمام لأغسل وجهي، وسقطت فاقدًا الإرادة على أرضية الحمام، و لم يدرِ أحد بذلك، وأفقت أتقيَّأ عصارة معدتي، وبقيت أشعر بالدوار وعدم الاتزان لمدة طويلة بعدها.

و لم تكن تلك التجربة الرديئة ولا العَوَز المادي لينهياني عن تدخين المخدر الشعبي، فاستمرت محاولاتي معه كلما توفَّر أو وجدت له سبيلًا، وذات يوم أخذني علي لأحد أصدقائه "أشرف اللبان" – ويدعى باللبان لأن والده يملك محل ألبان – توطدت علاقتي به سريعًا، حتى صرنا نتقابل يوميًا في محل أبيه عند منتصف الليل أو بعد ذلك قليلًا، حين تكون حركة

الزبائن ضعيفة ويغط أبيه في نوم عميق، نغلق الباب المنزلق لنصفه ونجلس بالداخل ندخن البانجو أو الحشيش الذي يأتى به علي أو أشرف، وفي الصباح نذهب للمدرسة، ندخل في شجار أو اثنين، ونتلقى خرزانة أو اثنتين، وأعود إلى بيتي أنتظر قدوم علي ليداعب تهاني قليلًا، ثم ننزل أنا وهو نتسكع في الشارع الترابي الضيق حتى منصف الليل، ونتوجه بعدها إلى أشرف.

كان أبي يعمل سائقًا على سيارة أجرة – ميكروباص – لا يملكها، وكان البيت الذي نسكنه مؤجرًا بكامله (إيجار قديم).. اللهم إلا شقة بناها أبي فوق السطح بمدخراته كلها لأتزوج أنا فيها، وأجرناها إيجار جديد، فكان دخلنا الشهري عشرون جنيهًا – إيجار أربع شقق في طابقين فوقنا، ومائة جنيه وعشرون – إيجار الشقة الجديدة، ومائة وستون جنيهًا معاش أبي لأمي.. أربعة مئات من الجنيهات تمامًا.. هي دخلنا الشهري أنا وأمي، وبرغم أننا لم ندفع يومًا مليمًا لماء أو كهرباء – حيث لم نركب عدَّادًا لأيٍّ منهما – إلا أن الأربعمائة جنيه لم يوفروا لي الحدَّ الأدنى من الرفاهية؛ فكانت أمي تصرف الدواء من التأمين الصحي برشوة خمسين جنيهًا، وتنفق حوالي مائتي جنيه على احتياجاتنا من طعام، وتدخِّر شيئًا ما، ولا يبقى لي سوى جنيه أو اثنين في اليوم، وكنت أشتري بهما سجائر كي أشترك بأي شيء في جلسات الحشيش.

مرضت خالتي الكبرى – وهي في مقام جدتي، فاضطرت أمي إلى السفر وتركت لي سبعين جنيهًا مصاريفي للأسبوع الذي ستقضيه هناك، وكان المبلغ خياليًّا، فاشتريت ورقة دخان (طلقه بانجو)، ودعوت أشرف وعلي للبيت، اندمجنا في المقارنة الهذلية بين البانجو والحشيش، فتعالت أصواتنا بالسب والشخر والضحك، فجاءت أم تهاني تدق الباب بعنف

وتصرخ لنخفض أصواتنا، وما يصحّش كده، فسأل علي: "مين المره دي؟" فأجبت: "أم تهاني".. ولم أدرك وقتها لم التمعت عيناه وشرد للحظة، كان الوقت عصرًا، وكنت مندمجًا مع أشرف في جدل حول إمكانية صنع خابور من البانجو، حين رأيت علي يسحب في يده تهاني ويدخل البيت، فوجئت في أول الأمر، إلا أن أشرف انتعش وقام ليداعب الفتاة، فأوقفه علي وتشاجرا، وفي اللحظة نفسها هربت الفريسة، فتلقّى أشرف "علقة" ورحل مقهورًا.. خرجت أنا وعلي تناولنا طبقي كشري، وفي عودتنا كانت تهاني أمام البيت تستعد لتعود لعملها في جلبابها الأسود وطرحتها الصفراء..

– الواد ضربك يا مَتْني؟ وجهت سؤالها ساخرة لعلي..

– ضربني آه.. بس تعالي ندخل جوه ونشوف مين فينا اللي مَتْني..

– لا يا عم ندخل جوه تاني وزعيق وشخير تاني وأمي تنزل تبقى فضيحة.

– مين ده بس اللي هيسب ويزعَّق؟ ولا إنتي خايفة تطلعي إنتي اللي متنية؟

كنت أشاهد فقط.. دار هذا الحوار في أقل من دقيقة، وكان رد تهاني التي تكبرني بعامين، ولا تحمل أي قسط من الجمال، شديدة النحافة جاحظة العينين، أنفها طويل وأسنانها صفراء، كان ردها غير متوقع بالنسبة لمشاهد في موقفي، فقد تحركت أمامنا تجاه شقتي في الدور الأرضي من البيت ذي الطابقين، والشقة الجديدة فوق السطح.

فتحت الباب، وكان علي ممسكًا بها من خصرها، بينما هي تتمايل في

غنج، جلست على أول كرسي قابلها وجلس هو جوارها، وأدخل يده تحت الإيشارب يتحسس رقبتها، وهي تنظر إلي نظرة غريبة لم أفهمها، لكني كنت سعيد بالمشهد، فهكذا أكون قد قضيت يومًا مليئًا بالأحداث، وحصلت على قصص أرويها وأتفاخر بكوني جزءًا منها، ذهبت أبحث عن آخر "جوان"، وعدت أبحث عن كبريت، وجدتهما متداخلين، فهي شبه نائمة على جنبها، ويطوقها هو بذراعيه ورجليه، ومنهمكين في قبلة استمرت أكثر من دقيقة، وبعدها قفز "علي" وألقالها على ظهرها، ورفع جلبابها إلى ما فوق بطنها دون أي مقاومة أو حتى ممانعة منها، أدخل يديه يداعب صدرها، وبدت هي كالمخدرة، التصق بها في هذا الوضع أقل من دقيقة وارتعش، فشعرت هي بذلك، فعدلت ملابسها وقامت ضاحكة.. "شفت مين اللي متني؟" وخرجت من الباب، بينما علي يبدو عليه الحرج والارتباك، فناولته الجوان ودخنه معي في صمت ورحل...

في تلك الليلة ذهبت وحيدًا إلى أشرف، وكان لديه أحد أصدقائه "رامي"، وكنت قد قابلته مرتين أو ثلاثة عند أشرف، رامي كان يصغرني بعام، لكنه يبدو كطفل؛ نظرًا لقصر قامته ونحافته ولونه الباهت ووجهه الأملس، تحدث ثلاثتنا قليلًا قبل أن ينحرف الحوار إلى علي وما فعله مع أشرف، وبسبب (حتة بت مصديَّة لا فيها قدام ولا ورا)... وكان رامي يشارك في الحديث وكأنه جزء من الحدث، ناولني جوان الحشيش وقال:

– هو الكلام ده دار فين؟

– عندى في البيت

– انت عايش لوحدك؟

– لأ.. بس أمي مسافرة..

دخل مباشرة في الموضوع، فهو يريد أن يخبئ لدي قطعة لا بأس بها من الحشيش، سوف يبيعها ويجني من ورائها "مصلحة حلوة غير كيفه"..

طب ما تشيلها في بيتكو.. ملأني الخوف رغم رغبتي الملحَّة في المغامرة..

– أبويا لو قفشها هايرميها وعملها معايا قبل كده.

فرك أشرف سبابته بإبهامه في إشارة مفهومة كي أطلب مقابلًا ماديًّا، و لم يمانع رامي، رحلت ليلتها أحمل "الحاجة"، وفي تلك المسافة الصغيرة بين دكان أشرف وبيتنا كان الخوف يسيطر عليَّ، ويبدو كل المارة كرجال المباحث، وكل الرجال كمخبرين، في الصباح أحضرت "الحاجة" إلى رامي حيث اتفقنا أن نتقابل خلف سور المدرسة الابتدائية، ومشينا مسافة قصيرة حتى واجهنا الخرابة، وألقى رامي الحشيش على الأرض وعلَّم مكانه بحجر، ووقفنا في الجهة المقابلة، فإن جاءت الحكومة وفتشتنا لن يجدوا شيئًا، وإن جاء زبون يجد ما يريد.

تمضي ساعات الصباح في رتابة ولا يأتينا "زبون" سوى "عمَّار"، ذلك الشاب الجامعي الوسيم الذي لم أره سوى مخدر تمامًا وكليًّا، فدائمًا كانت عيناه حمراء ونصف مغمضة، فمه مفتوح عن آخره، حذاؤه – الأنيق – مغطى بطبقة من التراب، يأخذ ربع أو اثنين ويدفع دون أن يعترض على الحجم أو يماطل في السعر، وقلما أتانا زبائن آخرين في النهار، فاعتاد أشرف وعلي الانضمام إلينا – بعد أن عادت علاقتهما كما كانت – ندخن جوان أو اثنين، ونأكل ثم نجلس على المقهى نلعب "دومينو"،

وكان شريكي الدائم في المرابعة "علي"، ودائمًا ما تغلَّبنا عليهما.. عند العصر أعود أنا وعلي إلى بيوتنا، أبلغ أمي بعودتي وآكل إن وجدت طعامًا، ثم أذهب للخرابة أطمئن على "الحاجة" أولًا، ثم أتوجَّه إلى رامي أخبره بعودتي كي يتمكن من الرحيل، وهكذا تبدأ الفترة الليلية، وقد أتعامل أثناء غياب رامي مع زبون أو اثنين بسهولة وسلاسة إن أرادوا ربعًا أو نصفًا، أما إن أرادوا أكثر من ذلك فكنت أرتبك في تقدير الحجم، وأضعف أمام محاولاتهم في تخفيض السعر، ويعود الأصدقاء واحد تلو الآخر، نجلس معًا حتى منتصف الليل، ونذهب أنا وأشرف وعلي إلى الدكان، ويأخذ رامي باقي الحشيش والنقود ويختفي...

نمارس ذلك اليوم بتفاصيله كلها لمدة عام أو أكثر، و لم يتغير شيء سوى أن "علي" أصبح ممنوعًا من دخول بيتنا منذ أن حاول الاختلاء بـ"تهاني" في المدخل، ورأتهما أمي وصرخت، فجاءت أم تهاني، وركض علي، وترك الفتاة تتحمل كل العواقب، وفترت بعدها علاقته بتهاني..

رسبت أنا في كل المواد، وكان السبب الوحيد وراء ذلك هو أني لم أذهب للامتحان من الأساس، وكنت في تلك الفترة قد أدركت كل التفاصيل والحيل المتعلقة بعملية بيع المخدر الشعبي، وصرت أبيع أكثر من "رامي" نفسه، لكن أشرف في جلسه جمعتني به قبل وصول الآخرين سألني:

– انت بتاخد إيه من ورا وجع القلب ده؟

– باخد كيفي وبطلّع قرشين مصلحة.

– ودا يستاهل تشرد نفسك قدام الناس وتروح كل يومين شايل معاك تهمة؟

– أشرَّد نفسي ازاي؟ ما اللي بيشتري مني أكيد بيضرب.. شِردة بشردة يا معلم..

– بلدك كلها بتضرب، بس مش كل الناس بتبيع، وبعدين انت يا ريتك بتبيع.. ده انت صبي.. ولعيِّل أصغر منَّك..

– ما تقصَّر يا أشرف ما تحرقش دمي.

– بص يا برنس.. من الآخر الواد رامي عمل معايا كام حركة قِلَّة، وأنا عرفته على أصله.

– عمل إيه زفت؟

– كام مرة أبقى مزنوق في حاجة ومعييش فلوس ما يرضاش يدِّيني، وساعات كتير يحاسبني أوسخ من الغريب..

– أصل ده شغل.. والحق ما يزعَّلش.

– أدام انت عارف كده ما تاخد حقك منه..

– ما أنا قلتلك بطلَّع مصلحة غير كيفي.

– مصلحة إيه ياله؟ عشرة عشرين جنيه؟ انت عارف إنه مكسبه هو مش أقل من تلتميت جنيه في كل حته يجيبها؟ يعني كل يومين تلاتة..

– وراك إيه يا أشرف؟ أنا عارف وانت عارف إن الكلام ده مش لوجه الله..

– الواد عمار اللي بيقف معانا الصبح معاه حاجة عايز يطيِّرها ومش عايز منها أي حاجة غير إن الفلوس اللي دفعها فيها ترجع ويطلع منها كيفه..

أخذنا نتشاور حول التفاصيل، وضرورة إقصاء "رامي" عن المصلحة، وكانت الخطة هي أني سأبيع لزبون "رامي" من حاجة "عمار" حتى أجمع لعمار المبلغ المتفق عليه، ويبقى لي كمية كبيرة من الحشيش، لكن ما إن استلمنا الحاجة من "عمار" بالغت أنا وأشرف في تقدير فوائدها، فدخنَّا نصفها أو أكثر في يومين، معتقدين أن النصف الآخر سيغطي المبلغ المطلوب، لكن "عمار" حين أخذ كيفه حسب الاتفاق تبقى لنا الربع أو أقل، وبعد أن بعناه لم يكن معنا سوى نصف المبلغ المطلوب، وكانوا مائة وثمانون جنيهًا من أصل أربع مئات يحق لعمار استرجاعها..

دخلنا في حسبة مستحيلة، فقررنا إعطاء المبلغ لعمار كما هو، وإن كان لديه خيل فليركب أعلاه.. وعلى هذا الأساس أنفقنا المبلغ المتبقي معنا، وهو المائة وثمانون جنيهًا أنا وأشرف وعلي، وألح علي في معرفة مصدر الثروة، فأخبرناه بالقصة كلها، فثار وهاج وانقلبت ملامحه، فقد أقصيناه عن "مصلحة" دون أن يدي هو أي سوء نية أو يضمر شرًّا، لكن زجاجات البيرة والعاهرة التي تفتحها وتلك التي ترقص أنسوه الغضب – مؤقتًا، تهربت من عمار في الأيام القليلة التالية، وكان كل ما أفعله هو أني أخرج صباحًا بالحاجة أقابل "رامي"، ويأتيني هو ليلًا لأخفيها، وكانت حجتي مرض أمي، لكنه بدأ في الإلحاح ليعرف ماذا يحدث، فاضطررت أن أخرج بين الحين والآخر كي لا أبدو كالهارب، وفي صباح استيقظت في ميعادي وأخرجت الحاجة من داخل الحذاء، وأخفيتها في ملابسي وذهبت لأقابل رامي، لكني فوجئت بشاب يقف أمامي، طويل منتبه، ويبدو عليه الشر، سرعان ما أدركت أنه عمار..

لم أكن يومًا ذلك الذي يهرب من الشجار، فتحركت تجاهه حتى استوقفني..

– الفلوس فين يلا؟

– ما لكش فلوس يلا..

لم يتردد ثانية ونزل برأسه على أنفي، فشعرت بالدوار وسال الدم، لكني استجمعت نفسي وركلت خصيته، فأصبح الوضع تعادلا والتحمنا، مضى وقت طويل ونحن نتقاتل على الأرض والتراب يغطينا، وحين بدا أنه يستسلم وبدأت أنا في السيطرة على كل الوضع، أخرج مطواته وغرسها في قدمي..

أدهشني إحساس الألم الجديد، وأجبرني على التراخي، فانتزعها وهمَّ بغرزها في مكان آخر في جسدي، فقاومت بكلتا يدي بينما أتلقى من يده الحرة صفعات، ومن أقدامه ركلات، وفي لحظة رديئة فقدت القدرة على المقاومة، وخنقني التراب، وانهكني الدم السائل من قدمي، فاستسلمت.. بحث عن أي شيء بحوزتي فوجد أكثر مما يتمنى.. كل ما يملك رامي من حشيش، وهو كل ما كنت أحمله معي.

اختفى أشرف حتى من دكان والده في تلك الفترة، واتضحت الصورة.. فرامي لم يكن أكثر من صبي لذلك الشاب الأسمر طويل الشعر الذي كان يظهر أحيانًا في منطقتنا، وصارت الأزمة بيني وبينه مباشرة، حيث طالبني بثمن الحاجة المسروقة، وقدر هو المبلغ بخمس مئات من الجنيهات، وألزم رامي بمثلها، وإلا فلن يتردد في قتلي، وهو لا يمزح في ذلك.

اختفى رامي تمامًا هو الآخر و لم يبق سوى "علي"، الذي كان يتسلل أحيانًا إلى بيتي ليقابل تهاني..

بحثت القصة كلها معه، و لم نجد سبيلًا سوى أن نسترد شيئًا من عمار الذي ورطني في كل ذلك، ثم نحاول إيجاد أشرف ليدفع معنا جزأ ونتخلص من تلك الأزمة..

تصيَّدنا عمار في طريق بيته عند الفجر، أوقفته فلم يتفاجأ..

– ما كَفِّتَكش العلقة اللي فاتت؟

– طلَّع الحاجة أو الفلوس يا هطلع اقول لأبوك دلوقتي.

– أبويا؟ انت أهبل يالا؟ غور بدل ما أشيلك في الرجل التانية.

ما إن تحركت يده تجاه حزامه ليخلعه كنت قد نطحته برأسي في وجهه، وظهر علي من خلفه، وبعد أقل من دقيقة كان عمار مستسلمًا ليدي وهي تبحث عن شيء ذا قيمة معه، واصطدمت بشيء صلب في جيبه، تحسسته وأخرجته، هاتف محمول!! أكثر مما تمنيت.. سحبنا عمار حتى مدخل عمارته وألقيناه هناك، أخذنا نعبث في الهاتف أنا وعلي، وكان من الصعب أن أوافق على بيعه وعدم الاحتفاظ به، لكن علي بدأ الحديث..

– البتاع ده مش في الجون.. أنا شفت واحد زَيُّه على مية وخمسين جنيه..

– يا عم بس اسمه موبايل في إيدك.

– إيدك إيه يابا؟! هتبقى ماسك محمول في إيدك وانت ملزوم بخمسمية جنيه؟! هات البتاع ده وأنا أبيعهولك.

– يا عم اسمع..

– ما اسمعش.. أول مكان هيدور عمار عليك فيه عند بتوع المحمول.. روح انت وكنّ في بيتكوا وأنا أبيعه وأجيبلك الفلوس.. ترد الفلوس وكفاية حوارات..

ترددت، ولكني اقتنعت بكلام علي في النهاية خوفًا من أن يسترد عمار هاتفه وأعود لأبحث من جديد عن مخرج أو مصدر للنقود، تحركت في اتجاه بيتنا، وتحرك علي في الاتجاه المعاكس، وسمعته يصرخ بينما يبتعد:

– ده حقي في المصلحة اللي أكلتوها عليَّا من الأول..

واختفى.

لم أعرف ماذا أفعل؟ ولأيام كان كل همي الاختفاء من عمار وسيد – صاحب الحشيش الضائع – والبحث عن أشرف وعلي وحين وجدت علي وتشاجرنا، ولم نفترق إلا حين فصل عشرات من الشباب بيننا، كنا كالعادة لا غالب ولا مغلوب.. كنت وحدي في مواجهة سيد.. وكنت أعرف أنه لن يتركني لحالي، ولا يمكن أن أختفي من أمامه للأبد، وحين كنت أخترع حججًا لأمي كي أبقى في البيت، جائني الأستاذ "سعيد" – وهو المستأجر الجديد الوحيد في البيت، أعطاني المائة وعشرين جنيهًا الإيجار.. فأخذتهما وركضت إلى "سيد جبنة".. استبشر أول ما رآني لكن المبلغ صدمه.. واضطررت أن أمضي على إيصال أمانة بباقي

الخمسمائه جنيه، واتفق معي على أن أقوم بدور "رامي" في بيع المخدر كي أسدد ديني..

عدت إلى البيت فوجدت أمي تجلس على عتبه الباب من الخارج مسندة رأسها إلى كفها، وكان ذلك المشهد نذير شؤم دائمًا..

"الفلوس فين؟".. سؤالها الوحيد وانطلق الشجار.. اجتمع الجيران يفصلون بيني وبينها.. وطُردت من البيت.

طفتُ في الشوارع حتى الفجر لا أفهم ما يحدث من حولي، وكيف تسارعت الأحداث حتى صار كل أصدقائي أعداء، بل واكتسبت عداوات جديدة غير "سيد جبنة" الذي لا قبل لي بمعاداته، وغير "عمار" الذي تصورت انتهاء أمره فقد انقلب كل الناس علي، حتى أمي الآن تقف ضدي، وانهارت كل نظرياتي وأفكاري عن قوتي بعد أن تلقيت علقة معتبرة من عمار تركت في جسدي جرحين، كما أني خشيت مواجهته وحدي ثانية، كما لم أقوَ حتى على رفع صوتي أمام سيد جبنة، وصدق كلام أشرف عن علي، وأنه يعرفني فقط لأسهِّل وصوله إلى تهاني، وأن رامي يستخدمني لخدمة مصالحه، ولم يكن خيالي يستوعب كل ذلك، لكن الحقيقة كانت أسوأ، فقد اتضح لي أن أشرف نفسه أخذ المصلحة واختفى..

كدت أفقد الوعي مع أول دقائق الصباح.. حين رأيت عربة الشرطة تقترب مني ببطء.. تفرسوا في وجهي قليلا ولم يتوقفوا.. فسرت في جسدي قشعريرة البرد.. ورثيت لحالي.. فقررت الذهاب إلى البيت وقبول أي صراخ وتحمل أي عقاب من أمي، وأمام بابها المغلق صرت أندب حظي وأؤنب نفسي.. في عامي السابع عشر انقلب العالم ضدي.. ولم يعد لي مستقبل في التعليم.. بل حتى فشلت في الانحراف... وبكيت.

بمعاونة الجيران رضيت أمي بأن أعود على شرطين.. الأول أن أترك التعليم لأهله – وقطعًا لم أكن منهم – فأعمل شأني شأن الرجال في سني، والشرط الثاني أن أعطيها كل ما أقبض أيًّا كان، وآخذ منها المصروف حتى لا أعود إلى استهتاري – وكأنه نابع من الترف؛ فرضيت وقضيت أيامًا قليلة هادئة في عملي المتواضع.. "منادي" أو تبّاع على سيارة أجرة من السيارات الأربعة المملوكة للشيخ صابر – غير الفرن الإفرنجي والبقالة – رضي الشيخ أن أعمل عنده إكراما لوالدي الذي عمل لديه سائقًا.

كنت أذهب إلى بيت الأسطى قبيل الفجر أغسل السيارة من الخارج بالخرطوم، وأجمع قاذورات الركاب من داخلها، وأوقظ الأسطى "حسين" مع أذان الفجر تمامًا لنذهب نصلي الفجر في أحد الجوامع القريبة – علنا نلتقي الشيخ صابر، ثم نذهب بالسيارة إلى الموقف نفطر ونشرب الشاي، وننطلق بعدها في شوارع المدينة المكتظة منذ تلك الساعة من النهار، يتخلل يومنا مشاحنات صغيرة من سائقين منافسين أو من زبائن مشاغبين، وقد نتعرض لأمين شرطة يأخذ نصف الإيراد، لكن يمر يومنا بسلام في أغلب الأيام، وينتهي عملنا مع انتهاء رحلات الموظفين والطلبة تمامًا ما بين المغرب والعشاء، فنصلي معًا ونفترق.

كان الأسطى حسين يذكرني بأبي، فهو يماثله في كل شيء، سائق بلا رخصة قيادة.. في الخمسين من عمره.. لا يملك السيارة.. كما لا يملك أي شيء.. يدخن بشراهة.. سريع الغضب.. متقلب المزاج.. فهو يومًا "يؤدي دورًا إيجابيًّا في المجتمع.. فكيف ينتقل الموظفين من وإلى أعمالهم من دون مساعدته؟".. ويومًا "الرصيف علم في عظمه.. والدنيا عملت معاه الغلط كله.. بس هو فاهمها صح ومحدش عرف يشتغله".. ويومًا "رجل مسن يعمل هذا العمل اللي يقصّر العمر ويجيب

الفقر.. عنده بنت مش عارف يجوِّزها.. وعيل بيشرب بانجو.. بس الحمد لله"..

وأيام وأيام.. والملايين من وجهات النظر والرؤى المتغيرة بين يوم وآخر.. بل بين ساعة وأخرى.. ولغة عربية فصحى أحيانًا.. وكلمتين إنجليزي أحيانًا.. وصمت أحيانًا، ودائمًا ما كنت أسمع شكواه أو مباهاته أو مغامراته دون أن يسمح لي بالكلام.. "طب اشتغل يا فصيح".. أو يصرخ: "ما تضيَّعش على ديك أمي المحطة".. أو بهدوء: "إنت تطلع إيه ياض يا ابن امبارح عشان تتكلم ولا تفهم الكلام ده؟"

لكن وفي كل أحواله كنت أتقبله، وقد سمحت لي الساعات الطويلة التي أقضيها في سماعه بالتعرف عليه جيدًا، لذلك تمكنتُ – بعد عناء – من الوصول إلى طريقة أجعله يسمعني بها، حتى وإن لم يكن يهتم بما أقول أو يعقب عليه ولو لمرة واحدة.

الأسطى حسين كان يملك رخصة في يوم من الأيام، لذلك هو يعمل لدى الشيخ صابر، لكن الشيخ يعرف أنه لا يحمل واحدة الآن؛ لذلك حين نجمع الإيراد ونذهب للشيخ على المقهى، يخرج العشرة جنيهات يوميتي – وفي أغلب الأيام يضيف عليها جنيهًا أو اثنين.. "خلي أمك تدعيلنا" – ثم يعطي الأسطى حسين مبلغًا لم أتمكن من تحديده، لكنه يتراوح بين الثلاثين والأربعين جنيهًا، أما باقي الإيراد – والذي قد يتعدَّى المائة جنيه – فيدسه في الجيب الداخلي لجلبابه، وينتظر سائقًا آخر يعطيه إيرادًا آخر.

أعود للبيت أحمل الاثني عشر جنيهًا وأعطيها لأمي ليلًا، وآخذ منها مصروفي عند الفجر، وبعد قليل اعتدت أن أنفق خلال النهار حوالي ستة

جنيهات وأعطيها ستة جنيهات، لم تعترض أو تسأل عن أي مبلغ أعطيه لها، فهي كانت تدخر لي النقود، وكنت أحاول تخيل المبلغ دائمًا، وقبل أن أتخيل الألف جنيه، كنت عائدًا لأدخن سيجارة، وأبحث في الطريق عن وجه "علي" الذي اعتدت الشجار معه كل يومين أو ثلاثة، ونخرج دائمًا بلا غالب ولا مغلوب، لكني كنت أستمتع برؤيته كما هو، بينما أنا قريبًا ستصل مدخراتي إلى الألف جنيه، كنت أبحث عن وجه علي، لكني رأيت "سيد جبنة"، وبدا من نظرته أنه وجدني هو الآخر، فأشار لي وذهبت..

– السلام عليكم..

لم يرد هو ولا الشاب الذي لا يختلف عنه سحنة ولا صوتًا، والذي كان يحدثه بحماس عن مشاجرة حدثت وتبحث الحكومه عنه بسببها، لفَّ سيدٍ ذراعه حول كتفي، واستند إليَّ فترة ليست قصيرة، وكان الآخر ينظر إليَّ بريبة، وكان هذا الوضع كفيلاً بإرباكي وتشتيت تركيزي، أنهى الشاب كلامه دون أن أدرك منه الكثير؛ فقد كنت هائمًا في فراغ البحث عن مهرب – وبعد رحيله قال سيد:

– تجيلي الساعة اتنين عند الخرابة.. لو اتأخرت هانكحك..

هكذا قالها لفظًا، وغمز بعينه اليسرى، أمضيت الوقت في ذهول لا أعرف ما سوف يحدث، ولا أفكر به، لكني لم أتخيل أني لن أذهب في الميعاد، دخلت لأنام و لم أنجح، هرب النعاس مني مرارًا، وكلما اقتربت منه ابتعد، فارتديت ملابسي وخرجت، وقفت في مدخل البيت – الذي لم يأته ضيف أبدًا – أخذت أشاهد المارة وأتأمل وجوههم، حتى رأيت

شبحين يقتربان ببطء مني، وعلى بعد أمتار افترقا، وتقدمت تهاني بوجهها النحيف وعينيها الجاحظتين..

– السلام عليكم..

– علي ده اللي كان معاكي؟

– علي ولَّا غيره تفرق إيه معاك؟

– هيَّ الساعة كام؟

– انت مالك انت.. ما أنا أرجع وقت ما أرجع مع أي حد.. انت...

وقبل أن تبدأ في إخراج الخراء من فمها، وكانت قد استعدَّت للشجار واتخذت وضع اللبؤة.

– لا هو انتي فاكراني بسأل عشانك؟ ما تعملي اللي انتي عايزاه.. إيَّاكش تولعي انتي وأمك.. أنا بسأل عَن الساعة عشان أمشي..

– الساعة واحدة.. ومالكش دعوة بأمي يا غالي ولا بيَّا عشان أنا عارفة عنِّك جُرَص ومش راضية اسيَّحلك..

لم ترتضي بالحل السلمي.. فسبيتها هي وأمها ورحلت وأخرجَتْ عليَّ ألفاظها النابية لكن بصوت هادئ فلم تثر أعصابي، لكن بعد رحيلها تأكدت من تفوق "علي" عليَّ، فهو يجيد التعامل مع الإناث حتى وإن كانت تلك – الإناث – "تهاني"، إلا أني لم أحظ يومًا بإحداهن، أحبطتني تلك الفكرة، إلا أني أجلت التفكير فيها إلى ما بعد الليلة.. خرجت إلى

الشارع الترابي الضيق، وكانت الريح تهز "الزينة الورقية" المعلقة بين الأسطح والشرفات منذ شهر رمضان المنصرم، فتحدث فحيحًا هادئًا يتماشى مع صمت البيوت المحيطة ولمعان وجه القمر فوقي، مشيت ببطء فلا داعي للعجلة، رأيت السيارة "الملاكي" الوحيدة في شارعنا هذا، وكانت ملكا للأستاذ سعيد الساكن في بيتنا، كانت قديمة ومتهالكة، لكنها تقله من وإلى عمله كموظف بجامعة عين شمس، خرجت من الشارع ودرت حول سور المسجد القديم، والذى حاول أحد العائدين من الخليج تجديده، لكنه توقف دون سبب معروف، فأصبحت الجهة الغربية للمسجد رخامية ومضاءة بأنوار النيون، بينما البوابة والجهة الشرقية ونصف القبة والمئذنة ما زالت حجارة مطفأة اللون ومتأكلة، تضيء بواسطة مصابيح كهربائية مطلية بلون أخضر قاتم تأكل الطريق المرصوف، وتجاوزت البحيرة الناشئة من مياه الصرف عن طريق بعض الحجارة الملقاة داخلها لتشكل مجموعة جزر يمكنك القفز عليها والعبور دون أن تبتل، إن كنت تقصد الممر المؤي إلى طريق الميكروباصات، أما إن كنت تنوي الدخول إلى الممر المواجه له، والذي يقودك إلى منطقة معروفة لدينا بالـ"عزبة"، فيجب عليك الخوض في قاذورات الآخرين الغارقة في البحيرة، ثم الدوران حول سور المدرسة الابتدائية، فيواجه أكوام القمامة المكدسة في مدخل الخرابة، لم أكن متأكدًا من التوقيت، لكن تلك الرحلة القصيرة من بيتي إلى الخرابة لم تستهلك بأي حال من الأحوال – ومهما تلكأت – أكثر من عشر دقائق، وكنت قد خرجت في تمام الواحدة حسب توقيت تهاني، إذن فأمامي خمسين دقيقة على الأقل أقضيها في انتظار "سيد جبنة"..

جلست فوق القمامة، ثم أخذت أعبث بها، وشدتني فكرة أن أجد شيئًا قيمًا بها، فكل بائعي المخدرات في منطقتنا يخبئون بضاعتهم في القمامة، بحثت في البدء بحذر، ثم امتصتني اللعبة فشمرت عن ساعدي وغصت في القمامة حتى جائني الصوت...

— جتك القرف.

نظرت خلفي لأجد سيد جبنة متأبطًا ذراع عمار ..

انعقد لساني ووقفت انتظر الغدر، لكن سيد طمأنني..

— انت مديون لعمار زي ما انت مديونلي.

لم أنطق أنا أو عمار طوال الجلسة، كان سيد وحده يملي علي التعليمات وأهز رأسي موافقة، بينما عمار يدخن سيجارته في صمت، وانتهى سيد إلى أني سأبيع الحشيش لمصلحته، والبرشام لمصلحة عمار، دون أن يكون لي أي نسبة في المكسب، حتى أنهي ديوني لكليهما، طالما لا أقدر على الدفع.

لم أغير شيئًا في نظام يومي، و لم أتهاون في تأدية عملي، إلا أني أضفت ساعتين أو ثلاثة أقضيها في الشارع بعد عودتي من صلاة العشاء لأبيع ما تيسر لي بيعه، وعانيت كثيرًا في إيجاد الزبائن، أو بمعنى أصح استرجاع زبائن الماضي، حتى وصل بي الأمر لسؤال الشباب في آخر الليل: مش عايزين حشيش؟!!

وخلال أسبوع لم أبع حتى نصف الكمية، وكنت أخشى أن يورطني ذلك مع جبنة في مشاكل معقدة أكثر، لكن حين كنت أفطر ذات مرة مع الأسطى على القهوة سمعت سائقين يتساءلان حول إمكانية إيجاد

"اصطباحة"، فخطرت لي الفكرة، وفي اليوم التالي أخذت معي الحشيش وهمست في أذن أحدهم: مش عايز اصطباحة النهارده؟

سرعان ما انتشر اسمي بين السائقين، وصرت ممولهم الأهم للمخدرات، كانت عملية البيع تتم أثناء شرب الأسطى حسين للشاي وإفطاره، وكنت أكتفي أنا بأخذ الإفطار معي كي أتمكن من إيجاد الوقت للبيع، ونظرًا لضيق المساحة الزمنية اضطررت للبيع لبعض السائقين من خلال نوافذ سيارتنا على الطريق، أو في المحطات المتوسطة بين موقفي النهاية والبداية، كان كل شيء يسير على ما يرام، إلا أن الأسطى حسين انقلب حاله، فصار سليط اللسان، يوبخني باستمرار، وحاول مرارًا التخلص مني، ولم يمنعه سوى أن الشيخ صابر هو من يملك هذا الحق، لم يكن حقده علي لسبب أخلاقي، فهو نفسه يدخن الحشيش أحيانًا، لكن كل ما يستفزه هو أن أكسب – أنا التبَّاع – أكثر منه – هو السائق.

وفي صباح عكر استوقفت الشرطة سيارتنا، وكنت قد بعت آخر ما أحمله، لم يسألوا عن الرخص، بل فتشوا السيارة وفتشوني، وحين لم يجدوا شيئًا فتشوا الأسطى حسين، كانوا ثلاثة أمناء، وحين لم يجد أحدهم شيئًا أراد الأسطى أن يرحل، لكن أحد الأمناء سحب مفاتيح السيارة...

– محدِّش فيكوا هيتحرك من هنا قبل ما الحشيش يطلع..

قادوني إلى داخل سيارة الأتاري، وقاموا بتفتيشي من جديد، ولم ينقذني سوى أن الأسطى حسين استوقف سائقًا آخر زميل لنا على الخط، تحدث مع أحد الأمناء فأطلقوا سراحي، واسترجع الأسطى مفاتيح سيارته، وقبل أن أرحل قال لي السائق هامسًا: أنا كده ليَّا عندك الربع

قرش اللي خدوه.. وشوف انت هتقدَّر وقفتي معاك بإيه.

لم يهدأ الأسطى حسين بعدها، و لم يسمح لي بركوب السيارة، وأصر على أن يعمل وحيدًا، فاستوقفت سيارة أخرى، وكان سائقها أحد زبائني؛ فقصصت عليه كل ما حدث...

– انت كده معروف عندهم إنك بتبيع.. وكانوا جايين لك مخصوص، بس احمد ربنا إن ما لاقوش معاك حاجة.

– طب والأسطى حسين؟

– لا ما تتكلِّمش معاه خالص، وآخر النهار تروح على الشيخ وهو يرجَّعك الشغل.

– ولو الأسطى قاله إني شغَّال؟

– ما يخصُّوش يابا الحوار ده.. انت أدام بتعمل شغلك مش هيجي ناحيتك.. وبعدين الشيخ اللي يهمه العَجَلة.. لا انت ولا الأسطى بتاعك ولا الحكومة، من الآخر مش هيمشِّيك غير لو قدامه واحد غيرك.

ذهبت ليلًا إلى المقهى، وكان لقائي مع الشيخ والأسطى قصيرًا، الأسطى قص كل ما حدث، وأصر أن لا أعمل معه حتى ولو عمل وحيدًا، وأنه على استعداد لأن يتحمل النقص في الإيراد حتى يجد الشيخ تبَّاعًا آخر يعمل معه، تردد الشيخ قليلًا، واستمسكت بالعمل – لأنى لم أكن أكسب شيئًا من بيع المخدرات، إلا أن إصرار الأسطى كان واضحًا، وانفضَّ المجلس على ذلك.

وبينما أنا في طريقي إلى البيت أفكر في كيفية مواجهة أمي بتلك الحقيقة، وأنها دون شك ستوسط أحدًا لدى الشيخ، وقد تذهب له بنفسها كي أعود للعمل وستعرف ما حدث بكل تأكيد، وأواجه من بعدها الحياة في الشارع أو أتحمل ظروفًا غاية في القسوة داخل البيت، ظهر رامي بوجهه المتحفز للشجار أمامي حين انعطفت في اتجاه البيت، نظرت إلى وجهه وألقيت السلام: سلامو عليكو..

- وعليكو..

لم أشتبك معه كالعادة أو أستفزه حتى، ولم أضف كلمة، ورحلت منكسًا رأسي شاردًا أبحث عن مخرج ..

لم أنم في تلك الليلة لحظة واحدة، واستغرقني التفكير في "أمي".. تلك الشخصية التعسة التي تزوجها أبي بعد أن عاد إلى "البلد" مسقط رأسه، وأعلن أنه ينوي الزواج، ولأن مستواه المادي متواضع، وأباه كان بوابًا في القاهرة، وتلك ليست بلدته الأصلية، وليس له جذور بها؛ لم يرضَ أحد به سوى جدي لأمي، وكان موظفًا بالأوقاف، وأحد المتعلمين القلائل في تلك القرية، إلا أن لديه ست بنات وولدين وزوجته متوفاة منذ فترة.

تزوجها أبي وجاءت معه إلى القاهرة، وأنجبا طفلًا ذكرًا وتوفي بالصفراء في أسبوعه الأول، وأعقبه آخر ولد ميتًا لشدة الضعف والهزال الذي كانت تعانيه من تكرار الحمل والولادة في عام واحد، وظلت تعاني أمراض الضعف لعامين كاملين، أنجبت بعدها طفلًا؛ فأسمياه "غالي"؛ كي لا يخطفه الموت مجانًا...

أيام قليلة وأصيب الطفل بمرض غريب، فدارا به على الأطباء والمشايخ حتى استقر الوضع به واطمئنا لأنه سيكبر بينهما، ظلت هي كل ما يشغلها رعاية الطفل والحفاظ عليه من المخاطر، فنما وحيدًا منطويًا دون أصدقاء.. حاد الطباع.. زائغ النظرات.. قليل الكلام.

كبرت وتلقفتني المدرسة والشارع، وهي لم يعد يشغلها بعد وفاة أبي سوى أن تبقى على قيد الحياة حتى ترى حفيدًا لها، فتُمضي أيامها كلها في محاولة يائسة لتنظيف البيت الذي لم ولن ينتهي التراب فيه، ترفه عن نفسها بالحوار مع جارتيها في الطابق الأعلى، وتتجسس على أخبار الأخريات، كيف أصارحها الآن بمشكلتي؟ فإن كنت أفلتُّ من أسئلتها عن اليومية بأعجوبة هذه الليلة، إلا أني غدًا لن أفلت، كما لن أنجح في الحصول على عمل قبل أن تكتشف الأمر، وكل ما فكرت فيه هو أن آخذ من مدَّخراتي لأسدد دين "سيد جبنة"، وأعيد له مخدراته، وأحاول أن أجد عملًا بعدها، وفي الصباح خرجت مبكرًا دون هدف كي لا تستيقظ وتجدني فينتهي الأمر وتعرف أني طردت من العمل، فذهبت إلى مقهى السائقين وبعت آخر ما لدي من مخدرات، وارتحلت بين الشوارع والحواري أبحث عن شيء لأفعله، أو شخصًا أعرفه، وحين فشلت أخذتني قدماي إلى البيت، فصرخت أمي: إيه اللي جايبك دلوقتي؟

— خلَّصت بدري.. أصل الأسطى تعبان..

— وفين يومية امبارح والنهارده؟

لم أجرؤ على إخبارها، كما لم أجد كلامًا لأقوله، فأخرجت ثلاثين جنيهًا من أصل مائة وعشرين في جيبي ودخلت لأنام، استيقظت على صوت أذان العشاء، وصدمتني فكرة أن يأتي سيد ليأخذ أمواله فيجدها

منقوصة، وأني سقطت في نفس الفخ مرة أخرى، فخرجت إلى مقهى الشيخ صابر وحاولت استعطافه، وبعد وقت طويل أمضيته في التذلل، قال: شوف يا ابني.. انت غلطت.. بس ما دام عرفت غلطتك أنا حساعدك..

- الله يكرمك يا شيخ.

- المخدرات اللي معاك دي بتاعتك ولا بتاعة مين؟

- بتاعت واحد بلطجي اسمه سيد جبنة.

- سيد عب حميد؟

لم أكن متأكدًا من أن جبنة هو عبد الحميد، لكن الشيخ نادى أحد صبيانه في الفرن وقال له: تقب وتغطس ترجعلي في إيدك سيد عب حميد..

اختفى الصبي وأخذت أتكلم مع الشيخ وأقص عليه معضلتي.. أشعلت سيجارة فنهرني وأمرني بإطفائها ففعلت.. جلست على كرسي خشبي قريبًا من كرسيه ذي المساند والشلتة.. كنت أشرب شايًا بينما يلعب هو الطاولة مع رجل مسن موفور الصحة كثير الضحك والمزاح، تابعت اللعبة وتعليقات الرجل الساخرة مدة، ودخل سيد دون الصبي فارتعدت خوفًا حين نظر إلي بكراهية وصرخ في وجهي: انت بتشتكيني يالا؟

هدَّأه الشيخ وأمسكه من ذراعه، فأشار لي سيد بأن أترك له مكاني، فقمت وأحضرت كرسيًا آخر لنفسي، فعلق سيد: رجّع الكرسي مكانه وخليك واقف.

نفذت الأمر دون تردد، وانتظرنا حتى أنهى الشيخ "عشرة الطاولة" ورحل الرجل المسن، وبدأ الشيخ الحوار..

– قول اللي قولته تاني قدامه..

نظرت إلى سيد بوجهه الأسمر وأسنانه الصفراء وعينه الحمراء وتداخل شعره الطويل الخشن وجروح وجهه الغليظ السمج، فارتبكت وتلعثمت، لكني استجمعت شتات نفسي وقلت:

– جابرني على بيع المخدرات بوصل أمانة ماسكه عليَّ من زمن.

نظر إلى سيد وقال: مانتاش عارف إنه كان شغال مع الأسطى حسين على عجلة بتاعتي؟

– يا شيخ أنا ماليش صالح بالكلام ده.. أنا ليَّا فلوس عنده.. ويا أخلَّص حقي يا أخلَّص عليه..

– قوم ياض اقعد بعيد..

قالها الشيخ ذو الوجه النحيف والأنف الصغير واللحية الحمراء الطويلة؛ فابتعدت مسافة لم تمكنِّي من متابعة الحوار بينهما، وبعد ساعة تقريبًا خرج سيد من المقهى وسحبني من ذراعي..

– إوعى يالا تفتكر إن صابر ده يفرق معايا ولَّا يخوفني.. أنا عاملُّه خاطر عشان في مصلحة بيني وبين أخوه.. الوصل أنا قطعته.. بس يمين بالله أنا أعرف آخد حقي من غير وصولة.

رحل سيد، ونظرت للخلف فرأيت الشيخ يستعد للرحيل، فركضت إليه..

- ارجع الشغل بكره يا شيخ؟

- عمك حسين مش عايزك، وأنا عملت اللي عليَّ وخلَّصتك من سيد.. مالكش أكتر من كده عندي.. وشوف أكل عيشك بعيد عني...

رحل هو أيضًا.. فرحلت كما جئت بلا حل للأزمتين.. أزمة كيف أصارح أمي بما يدور، وأزمة الثلاثين جنيهًا المنتقصة من نقود سيد، وكانت الثلاثون جنيهًا هي الأزمة الأهم والأكبر؛ فسيد يريد نقوده كاملة غدًا، ولم أجد حلًا سوى أن أتحايل على أمي لأخرج ثلاثين جنيهًا من مدخراتي التي تتحفظ عليها، وبعد جدل قصير معها بدأت في الصراخ في وجهي، فرددت بأسوأ من صراخها، وتعالت أصواتنا.. وتدخل الجيران لحظة الاشتباك بالأيدي.. فحملني الأستاذ سعيد إلى خارج البيت.. وتكلم معي وقتًا طويلًا.. لا أذكر من كل ما قاله سوى كلمات قليلة: "انت راجل بتصلي"، "ده بدال ما تشيل عنها بتتخانق معاها"، "أمك ثم أمك ثم أمك".. وكلام وكلام... في حين لم أكن أرى أمامي سوى المبلغ المفقود من نقود سيد والعمل الذي طردت منه.

انتهى ذلك اليوم متأخرًا، لكني - ورغم الإرهاق - استيقظت قبل الفجر، حاولت النوم من جديد ولم أفلح، فخرجت بلا هدف، وقضيت ذلك اليوم في إفلاس تام، دون حتى علبه سجائري المحلية، وعلى مقهى السائقين عند العصر كنت أبحث عن سائق يحتاج تبَّاعًا، في حين كان الجميع يسألني عن المخدرات، فقفزت الفكرة إلى رأسي..

– هات فلوس وأنا اجيبلك دلوقتي..

رفض البعض، وتردد البعض الآخر، لكني في النهاية تمكنت من جمع خمسين جنيهًا، أكملت بها نقود سيد، وطرت إليه عند الخرابة حيث يقضي نهاره..

– فلوسك أهيه.

– خلصت؟

بعد لحظات من سؤاله، وقبل حتى أن أجيب، تغيرت لهجته معي، وأخبرني بأنه هكذا وصله حقه ودينه القديم، وأنه معجب بي وبقدرتي على البيع، ويتمنى أن أستمر معه، وأنهى ذلك الود المفتعل بإخراجه خمسين جنيهًا..

– خد ياض.. مش خساره فيك.. بس تجيني بالليل هدَّيك حاجة جديدة.

ركضت إلى مقهى السائقين.. رددت النقود وأخبرتهم بأن "الحاجة" لن تأتي قبل الليل، وهكذا عدت إلى البيت ومعي سبعة عشر جنيهًا وعلبه سجائر، واتفاق مع سيد على نفس العمل لكن بأجر ...

مرت أيام جديدة من نوعها عليَّ، فكنت ميسور الحال نسبيًّا، دائم التنقل والتجوال بين الزبائن الذين تزايدوا بطريقة مذهلة في منطقتنا، بل في المناطق حولنا، فصرت أقابل سيد يوميًّا لنتبادل النقود والمخدرات ونمضي وقتًا طويلًا في تدخين الحشيش والضحك والعبث، حتى صرنا أصدقاء، وكان ينضم إلينا عمار من حين لآخر، وحاولت تحسين علاقتي

به دون جدوى، و لم يكن يزعجني سوى صراخ أمي في وجهي كلما رأتني لكنها لم تكن لتطردني من جديد؛ فأنا الآن مصدر رزق، غير أنها مدينة لي بمبلغ يقارب الألف جنيه، وهي مدخراتي من مهنتي كتبَّاع، لم أكن أتوقف عن التساؤل حول نقودي، و لم أتلقَّ إجابة واضحة أبدًا، لكني كنت على يقين من وجودها، حتى بعد وفاه أمي دون أن تترك لي إشارة أو كلمة حول مكان النقود، إلا أني واثق من وجودها، فهي باختصار لا يمكنها إنفاق مثل هذا المبلغ..

سافرت بجثمان أمي إلى البلد، وتلك كانت زيارتي الثانية أو الثالثة إلا أني لا أذكر حتى توقيت الزيارة السابقة، سألت كثيرًا عن أقربائي، وكانوا مجهولين بالنسبة لأغلب السكان، غير أن معلوماتي كانت ضئيلة عنهم، و لم أكن لأنجح في العثور على أحدهم دون مساعدة شيخ المسجد الذي طلبت منه الاحتفاظ بجثمان أمي حتى أجد أقاربي، فأذاع الخبر عقب إقامته لصلاة المغرب، أقمت لدى خالي الأصغر لمدة ثلاثة أيام حتى انفضَّ العزاء واختفى المعزون، وأصر على خالي على أن أذهب لزيارته نهاية الشهر الجاري، فوافقت حين أدركت أنه من خبأت أمي لديه نقودي، عدت إلى القاهرة، ونصحني "سيد" بأن أنصب صوانًا أمام البيت، ففي العزاء تعرف من يحترمك ويقدرك ومن لا يعترف بوجودك، اقتنعت.. وقاسمني سيد التكاليف، وفوجئت بوجوه لا أعرفها، وأدركت بعد قليل أن كلهم جاءوا لتعزية سيد!! وتفاجأت حين دخل الشيخ صابر برفقة شيخ آخر ضخم أبيض الوجه تبدو عليه النعمة.. فسألت: مين اللي مع الشيخ صابر ده يا سيد؟

— ده الشيخ خليفة أخوه.. مانتاش عارفه؟

– يطلع مين يعني؟

– ده اللي كلنا شغالين عنده، وصابر نفسه شغال بفلوسه .

لم يضف كلمة أخرى، و لم أسأل المزيد؛ لأني فوجئت بوجه "علي" يدخل إلى الصوان، وكان يبدو عليه النعيم بعد التشرد، والهيبة بعد البلطجة، جائني سلّم عليَّ وهمس في أذني:

– ما كنتش عملتها بدري شوية.. كان زماني راكب تهاني في بيتكو.

أغاظني استهتاره بي حتى في مثل هذا الظرف؛ فقلت:

– كان زمانك لسه بتجيبهم على نفسك، انت نسيت إني شفت كل حاجة؟

لم يتكلم معي ثانية، لكني لاحظت أنه أحد أتباع الشيخ خليفة هذا، فهو يجلس جواره، يهمس الشيخ في أذنه فيتحرك سريعًا، ويعود يهمس في أذن الشيخ، جلس الشيخان مع علي وسيد في صدر السرادق، ووقفت أصافح الأيدي وأقبل الوجوه، بينما كانوا يتحدثون في أمر يبدو أنه ذو أهمية .

انتهى العزاء ورفع عمال الفراشة آخر الكراسي، وبقيت أنا وسيد نجلس أمام البيت..

– انت كنت عايز إيه من المعزى ده يا سيد؟

– يا أخي دي أمك ولازم تاخد عزاها.

– قصّر يا سيد وما تحوَّرش، وما تقوليش إنك دافع معايا لوجه الله..

– من الآخر.. في مشكلة كده وكنت عايز الشيخ خليفة يخلصهالي، وأنا برضه بخلصله مصلحة قصادها.

– وما كانش ينفع تقابله في أي داهية تانية؟

– ما انت عارف إني عليَّ مراقبة، وهو لو اتشاف معايا يدخّل نفسه في حوارات..

استفزَّني كلامه، فقد أدركت أنه أصر على إقامه العزاء لكي يتمكن من مقابلة بعض الشخصيات دون أن ترتاب الحكومة ومخبروها فيه، فوقفت قبل أن أقول: تصدق إنك طلعت نحس أوي ياض.. ولولا إن في مصالح بينا لكنت عوَّرتك..

– ما تطوِّلش لسانك يالا.. واعرف تمامك وإلا يمين بالله تحصل أمك.

وقف في وجهي وقالها، فأعاد الوضع إلى بدايته، حين كنت أرتبك من رؤيته وأرتجف من كلماته؛ فسكتُّ.

استأنفت حياتي بشكل طبيعي، غير أني صرت أكثر تحررًا، فصارت جلسات الحشيش تعقد عندي في المنزل، فتوطدت علاقتي بالكثير من أصدقاء سيد وصاروا أصدقائي، حتى إن الأستاذ سعيد تأخَّر مرة عن دفع الإيجار، وكان ثلاثة من أصدقائي الجدد يسمعون الحوار كله، فقاموا وضربوا الرجل من أجلي وصعدوا إلى شقته وأخذوا كل ما له قيمة فيها، بعد أن دمروا كل ما ليس له قيمة، تصالحت وديًّا مع الأستاذ سعيد على أن الإيجار المتأخِّر والإيجار القادم هو ثمن التلفيَّات والمسروقات، لكني

أصبحت – رسميًا – أمام كل السكان والجيران مجرم جديد.

سافرت إلى خالي بعد شهرين من وفاه أمي كي آخذ منه النقود، وكل ما قاله كان حول صلة الرحم والود المتبادل، وإننا أسرة واحدة، وأمضيت وقتًا طويلًا منتظرًا أن يذكر هو النقود، لكن فاض بي الكيل، فصرخت فيه: فين ديك أم الفلوس؟

– فلوس إيه يا أبو فلوس؟! انت فاكر إن أمك ليها حاجة؟

أمسكت جلبابه من حول رقبته، فالتف الناس حولنا وحاولوا فصلي عنه فيما كنت أحاول التمسُّك به، أو إيصال لكمة أو صفعة إلى وجهه، وفي خلال ذلك أدركت احتمال أن لا يكون هو مخبأ أمي للألف جنيه، فتركته ورحلت إلى القاهرة، وفي نفس الليلة جائني سيد وعمار ليقطعوا الحشيش إلى أنصاف وأربع، وبعد ساعة تقريبًا دق الباب، وفتحت لأفاجأ بوجه علي، لم يترك لي وقتًا لأتساءل وأندهش، وسألني مباشرة عن سيد، وجاء صوت سيد من الداخل يطلب منه بأدب أن يدخل: "اتفضَّل يا عم علي".. هكذا قالها! واندهشت مرة أخرى لحرارة السلام بين سيد وعلي، لكن الصدمة كانت في السلام الحار والود المتبادل بين عمار وعلي.. وقفت عند الباب للحظات أتساءل عن سر الصداقة بينهما، وكيف يصبح علي صديقًا لعمار بعد أن اعتدى عليه وسرق هاتفه النقال، وقت أن كان الهاتف النقال فخرًا لمن يحمله، كيف غفرا لبعضهما ولم يغفرا لي؟ رغم أن علاقتي بكل منهما أطول وأكثر عمقًا، ثم انتبهت إلى أن علي هذا دخل هكذا دون إذني إلى بيتي، بعد أن أهانني في عزاء أمي، أغلقت الباب من خلفي وخلعت حزامي.. علي كان أفضل من يلعب الكرة في المدرسة الابتدائية، كما كان الطالب الأقوى تأثيرًا وحضورًا

في الثانوي، واستخدم صداقتي ليصل إلى تهاني، وأنا لم يميز طفولتي ومراهقتي سوى أسطورة القوة التي انتهت على يد عمار وسيد، نزلت بالحزام على ظهر علي، ولا أعرف كيف استشعر الغدر، وقفز مبتعدًا لتستقر "توكة" حزامي على وجه عمار الذي لم يتردد وسدد يمناه إلى وجهي، فضربته بالحزام من جديد بعد أن تراجعت خطوتين فلم تنل مني لكماته العشوائية، ثوانٍ قليلة وكان ظهري للحائط بينما حزامي يدفع عني عمار وعلي وسيدٌ...

انحنى سيد وتحمل ضرباتي المتلاحقة على ظهره، ودخل برأسه في معدتي، فتمكن علي من الإمساك بيدي، ونطحني عمار برأسه في وجهي عدة مرات.. وأفقت عاريًا، يداي مقيدتان إلى المنضدة في مدخل شقتنا، أشعر بالألم يجتاح جسدي كله ثم يختفي، ويعود من جديد الدم يقطر من رأسي وأنفي وفمي، لم أقوَ على التحرك، ولم أحاول كثيرًا، لم يكن في بيتنا أو عمارتنا في هذا الوقت سكان رجال سوى الأستاذ سعيد، أما باقي المستأجرين فهن أرامل، مرت إحداهن أمامي ورأتني عاريًا مقيدًا يغطي وجهي الدم، فصرخت ولم أدرك ماذا كانت تقول، ولم يشغلني كثيرًا، فقد كانت موجة الألم الجديدة تجتاحني، في ذلك الوقت لم يبد شيئًا مفهومًا.. كلامًا بلغة غريبة، وحركه عشوائية، ولم أبدأ الادراك إلا حين هبط على وجهي سائل بارد، وأعقبه صوت الأستاذ سعيد..

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- فُكّني يا أستاذ..

واختنقت الكلمات في جوفي، وأطبقت شفتيَّ كي لا أبكي، فأخرج الأستاذ سعيد ولاعته وأذاب السلك البلاستيك فتحررت يداي بعد أن

احترقت بفعل البلاستيك المذاب، استندت إلى مرفقي ونهضت، لأرى المشهد المروع للبيت الفارغ المدمر...

– كل ده من العيال السَّوّ اللي بيقعدوا معاك.

كنت عاريًا كما ولدت وبحثت عن شيء أرتديه و لم أجد..

– انت أبوك الله يرحمه كان راجل في حاله، مالك انت ومال الوساخه دي؟ وبعدين اللي ما يقدرش يصرف العفريت ما يحضَّروش.. ولّا إيه؟

لم أكن أفكر سوى في قدر الإهانة التي وُجِّهت إليَّ، وأن "سيد" نفسه انقلب علي في لحظة..

– هاتلي حاجة ألبسها الله يرضى عنك..

خمس دقائق أو أقل قضيتها بين الركام أنتظر عودة الأستاذ سعيد وأحاول تذكر ما حدث دون جدوى، أعطاني الأستاذ جلبابًا وخمسين جنيهًا كجزء من الإيجار كي أتمكن من الذهاب إلى الصيدلية لمعالجة جروحي، ضمدت جروحي واشتريت طعامًا وعدت إلى البيت يغلي الغضب في صدري، ولا أفكر سوى في سيد، فعمار أو علي عدائي معهما لم ينته منذ بدأ، أما هذا الحقير فكنا أصدقاء حتى الأمس، بل إلى لحظة ما قبل الشجار.. كنت أتصوره صديقي.

لم تكن جروحي خطيرة، لكن حالة البيت كانت في منهى البؤس، فكل شيء محطم، حتى الأشياء القليلة التي تركها أبي وأمي، ولا يوجد في الصندوق الذي كان يحوي ملابسي – القليلة – شيء، اغتسلت

وبحثت عن شيء أضع به الطعام، فوجدت سكينًا، فأخذته وخرجت أبحث عن سيد، وبعد عناء وجدته واقفًا بين ثلاثة من أصدقائه، كنت أنوي شق صدره مباشرة حين أراه، لكن وجود أصدقائه قد يمنعني من ذلك، فقررت الصبر قليلًا.

– سلامو عليكو يا رجالة..

ردُّوا جميعًا السلام، وأضاف سيد:

– بعد إذنكوا يا معلِّمين..

لف يده حول كتفي وبدأ..

– إيه يا جدع اللي انت عملته ده؟

– أنا برضه؟

– أنا ما مدِّتش إيدي عليك غير لما كلت وشي بالحزام، انت كنت بتلوِّش.. بعدين أنا سيبتكوا ونزلت، ما اعرفش عملتوا إيه في بعض..

– على كان جاي ليه؟

– حوار كده انت مالكش فيه.

أخرجت السكين ووضعت طرفه على عضوه..

– مافيش حاجة ماليش فيها..

– عيب يا غالي كده إحنا أصحاب..

كانت جملته تلك كفيلة بإشعال ثورتي، فضربته بمقبض السكين على أنفه..

- يمين بالله اقتلك يا سيد إن ما اتعدلت واتكلمت زي الناس.

كنت أتمنى أن يثور أو يدخل في شجار كي أحسم قراري وأقتله، لكنه لم يفعل، وقال:

- تعالَ طيّب.. أنا هقولك اللي انت عايزه.. بس اهدا..

جلسنا في الخرابة وأشعلنا جوان واستمعت إليه..

- عمّار أبوه بيسافر السعوديه تمن شهور في السنة وبيبعتله قرشين كويسين.. وهو بيدّيهوملي أدوّرهومله، ما اقدرش أعمل معاه الغلط.. مع إني ما بحبوش وما بطيقش شكل أمه.. بس المصلحة معاه مبتخلصش.. كل شهر في فلوس ما ينفعش أسيبه ده ولا أزعله مني..

ناولني الجوان، وكان صوته المزعج يتردد في أذني، بينما يبحث عن علبة سجائر في الأرض ليستخدمها في لف جوان آخر..

- الواد علي صايع مش غشيم زيك.. راح اتكلم مع عمار وكَلُه بالكلمتين وبقوا حبايب.. مع إني عارف إن عمار بيكرهه.. ومش ناسى الحوار القديم.. بس هو ما بيحبّش المشاكل..

- طب مالك انت بعلي؟

- علي اشتغل عند الشيخ خليفة في القهوة، وهوب كل دماغ الراجل وبقا دراعه اليمين، عشان كده النعمة بانت عليه..

– ما بقولكش يابا احكيلي قصة حياته.. مالك بيه؟

قلتها ورفعت سكيني أمام وجهه..

– ارمي ياض السكينة دي.. إوعى تفتكر إنها مخوِّفاني.. أنا بكلِّمك كده عشان العيال دي افترت عليك.. بس أنا ما عملتلكش حاجة وعايزك تفهم..

أخذ يقص عن بطولاته ومغامراته، ثم يعود ليحكي عن رجولته وجدعنته، وإنه بالرغم من كل مصائبه وبلاويه "ما بيجيش ع الغلبان"، وانتهت الليلة عندما رأينا سيارة الحكومة "الأتاري" تحوم حول الخرابة، فرحلنا، وأمام المسجد – حيث نفترق فيدخل هو العزبة بينما أدخل أنا الشارع الضيق إلى جوار المسجد – قال:

– انت ليك حق عندهم.. بس بلاش الواد علب ده دلوقتي عشان الشيخ خليفة بيعزه وهيقف معاه في وش التخين.. عمار اعمل فيه اللي انت عايزه.. بس إوعى الشيطان يعملها معاك وتقتله.. أحسن تروح بلاش وتضيع علينا المصلحة .

عادت الأمور إلى طبيعتها في الأيام التالية، وعدت أنا وسيد أصدقاء يحمل كل منا قدرًا هائلًا من الغدر داخله، واختفى عمار من الصورة، واستنتجت أن سيد حذره مني ففضل هو أن يبتعد، استعدت حيويتي مع الأيام، وبدأت أهتم بمظهري، ولأني كنت في حاجة لملابس جديدة، استغللت الفرصة واشتريت ما يناسب ذوقي ومزاجي، وتركت شعري ليطول، كنت أصرف يوميًا من دخل بيع المخدرات، بينما أنفق الإيجار الذي يأتيني كل أول شهر على الملابس والسهرات، وكونت صداقات

مع زبائني وخاصه الطلبة، وهم كلهم مدمنون فقراء، كنت أبالغ في كرمي معهم في بيع الحشيش كي يدخلوني عالمهم المثير، تعلمت منهم الكثير، كلعب البلياردو وتدخين السجائر الأجنبية، وأماكن شراء الملابس والأحذية، وضرورة حمل الهاتف النقّال، والاهتمام بشعري – الذي كان يصل حتى نصف رقبتي وقتها، كما استمتعت بكوني الزعيم، فأنا الأكثر تشردًا وحرية، والأكبر دخلًا، وصاحب المخدرات دائمًا، اندمجت معهم تمامًا، وعرفت السهر على المقاهي الغالية، وتنقلت خارج منطقتنا، وأهملت البيع، ورويدًا رويدًا توقفت تمامًا عن البيع، وصرت أجمع منهم بعض النقود تكفي حاجتي في مقابل المخدرات التي كنا ندخنها بجنون، وقبل أن تنتهي المخدرات يتصرف أحدهم في مبلغ ما أعطيه لسيد في مقابل البضاعة الجديدة، ولم يكن هو يعترض رغم انخفاض المكسب من "الحاجة" التي آخذها منه إلى أقل من النصف، حتى وصل الأمر أن أحرقنا وقّيّة لا يقل ثمنها عن مائة وخمسين جنيهًا، وأعطيته ثلاثين جنيهًا، وأيضًا لم يعترض، إلا أنه جاءني في يوم مضطربًا خائفًا يسأل عن نقود، وكنت خارج الإدراك تمامًا، ولم أفق من تأثير المخدر منذ ثلاثة أيام على الأقل، ورأيت في هيئته المضطربة تلك دافعًا للانتقام، فأخبرته ألا نقود له عندي، فثار وهاج وأخذ يسب ويلعن، فركضت إليه حاملًا لوحًا خشبيًّا من الفراش، وما إن اقتربت مسافة مناسبة كان اللوح مستقرًّا على رأسه، واجتمع رفاقي الجدد حوله، وانهالوا عليه ضربًا حتى فقد القدرة على المقاومة، واجتمع الناس في مدخل البيت، إلا أني لم أكن قد اكتفيت منه بعد، فسحبته إلى الداخل وجردته من ملابسه، مطواته، نقوده، والحشيش، وقيدت يديه خلف ظهره، وقدميه إلى نفس المنضدة التي كبلوني بها من قبل، كان يفيق بين الحين والآخر يسب ويقسم فينال لكمة أو بصقة.. تأكدت من إحكام القيد، وأخذت رفاقي وخرجت،

عدت لأجد مظاهرة في الشارع، زحام رهيب ودخان كثيف يتصاعد من مسافة، سيارات الشرطة تقف على أول الطريق لا يمكنها التقدم أكثر من ذلك، وفي مدخل الشارع بوابة صنعت من إطارات السيارات المحترقة، ويقف أمامها مجموعة من الشباب رافعين سيوفهم عاليًا، وصراخ نسوة، وعربات الشرطة لا تقدر على التدخل، السلاح كان مرفوعًا عاليًا، و"أنابيب البوتاجاز" تخرج لهبًا منتظمًا، كان سيرك أمام البيت، ولم يكن له معنى سوى أن سيد ورفاقه غاضبون لأقصى حد، لم أكن أملك شيئًا في جيبي سوى عشرة جنيهات، وجوانين حشيش، ونصف علبة سجائر حين تركت بيتي وشارعي إلى الأبد.

-٢-

كنت أقرأ تلك الكشاكيل في سرية، وكنت أخفيها كلما جاء أحد من الأصدقاء، لم تكن لها أي أهمية سوى أنها تسليني في أوقات الملل القاتلة، وكنت أخفيها كي لا يسخر أحد من هوايتي الكئيبة.. القراءة.

في طفولتي كان الأطفال يلعبون الأتاري والسيجا، لكنني لم أمتلك واحدًا، و لم أكن لأتطفل على أحد ممن يملكون تلك الأجهزة السحرية، لم أتألق في لعب الكرة أو الركض أو إلقاء النكات، لم أكن مكروهًا يومًا، لكنني لم أكن محبوبًا وسط الأطفال في الشارع، كنت مجرد طفل لا يعني شيئًا للكثيرين، لا أملك ما يميزني ويجعلهم يبحثون عني إن اختفيت أو غبت، كما لم أجد متعة في سرقة البلح أو المانجو من المزارع، أو الركض خلف السيارات التي تخترق بين الحين والآخر قريتنا، قرأ لي أبي ذات يوم قصة أطفال تحوي بعض الرسوم، لا أنساها حتى اليوم، ولا أنسى كلمة مما جاء فيها، اسمها "نشيد الشمس"، ولا أعلم لم انبهرت وقتها بتلك القصة وحملتها معي دائمًا، وكلما قابلت أحدًا يعرف القراءة توسلته حتى يقرأها لي، وبرغم اختلاف درجة الاهتمام وطريقة

الإلقاء، إلا أنها دائمًا ما بهرتني، واقتنعت بفكرة التعليم والمدرسة، فهي باختصار ستمكنني من قراءة "نشيد الشمس" كلما أحببت، ونظرًا لقناعتي بالتعليم وعدم نجاحي في ألعاب الأطفال من سني، كانت المدرسة الابتدائية ومريلتها بنية اللون أجمل ما في حياتي، وتعلمت القراءة، وقرأت "نشيد الشمس" حتى حفظتها، واستمتعت بدروس العربي والحساب، ونجحت، وكنت الأول في ترتيب الفصل بعد كل امتحان في المراحل الابتدائية والاعدادية، كان لدي أخوين يتعذبان في التعليم، وأخت تزوجت بعد أن حصلت على شهادة الثانوي الأزهري، أما أنا فكنت الطبيب المنتظر..

لم أترك يومًا القراءة، و لم يقنعني شيء سواها، لكن ذلك ليس مبررًا لأن أعرض نفسي لسخرية كل من يعرف هوايتي الكئيبة بالنسبة إلى سني.

الكشكول الثاني

لم أكن أملك شيئًا في جيبي سوى عشرة جنيهات وجوانين حشيش ونصف علبة سجائر حين تركت بيتي وشارعي إلى الأبد.

أمضيت الليلة أتسكع، وفي الصباح اقتربت مسافة صغيرة من منطقتي، وجدت أحد أصدقائي الطلبة يركض تجاهي، وأخذ يحدثني عن الأهوال التي حدثت أثناء الليل، وأن سيد وأصدقاءه تعقبوا كل من اشترك معي في ضرب وسرقه سيد، وكل من وقع في أيديهم خرج بعاهة أو اثنتين، وأنهم احتلوا بيتي، ويقيمون به منتظرين عودتي، وقد أقسموا أن يقطعوا عضوي، غير أنهم يبحثون عني ويثيرون الرعب في المنطقة، وأن أفضل الحلول أن أختفي تمامًا حتى تمر الأزمة، وأعطاني خمسة جنيهات وهي كل ما يملك.

أفطرت وأخذت أفكر في مكان يؤويني حتى تمر العاصفة، ولم أجد حلًا سوى أن أسافر البلد أحاول أن أستسمح خالي وأعتذر له، وحتى إن رفض فقد أجد خالة أو خال آخر يستضيفني يومين، وحين وصلت هناك واعتذرت له تقبل اعتذاري بسهولة غير منتظرة، لكني شعرت

بجفاء شديد في المعاملة، حتى إنه لم يدعوني للغداء، فأخذت ألح عليه أن يغفر لي ويسامحني، فأقسم أنه لا يحمل أي ضغينة، وبرغم ذلك لم يدعوني حتى لشرب كوب الشاي، فرحلت و لم أبحث عن أقارب آخرين، وعدت إلى القاهرة مفلسًا تمامًا – بعد أن أكلت في القطار – ومنهكا إلى أقصى درجة، دخنت جوان وحيدًا مستندًا إلى حجر، وتسكعت حتى أذَّن الفجر، فقفزت الفكرة إلى رأسي، واتجهت إلى المسجد حيث كنت أصلي أنا والأسطى حسين، ووجدته هناك، وبعد الصلاة أخذت أرجوه أن أعود للعمل، وأبدى تعاطفه معي، إلا أنه أخبرني أن لديه تباع جديد، وهو شاب متعلم ويحتاج لهذا العمل بشدة، وهو لا يستطيع التخلي عنه، واقترح علي أن أذهب للشيخ صابر، لكن القهوة التي يجلس عليها الشيخ صابر معروفة جيدًا لدى سيد وأصدقائه، و لم أقدر على الاقتراب من المكان..

طفت في الشوارع بعد الفجر، ورأيت مجموعة من العمال، كان الجوع يقتلني فقررت أن أبيع الجوان المتبقي معي في مقابل جنيهين لآكل، وحين اقتربت رأيت رجلًا في سيارة ملاكي يختار من بينهم، فأدركت أنهم عمال مرتزقة، فجلست بينهم لعل أحد المقاولين يختارني لأي عمل، إلا أن النهار انقضى دون أن يبقى سواي، فدخنت الجوان المتبقي، وكدت أسقط من الإعياء فدخلت إلى مسجد قريب لأنام، وحين أذن المغرب أيقظني أحدهم فدخلت اغتسلت وتوضأت وصليت ثم عدت لأنام فطردني الإمام، ونمت في حديقة صغيرة مقامة في ميدان عام، كنت أنام من الجوع وليس لرغبتي في النوم، عند الفجر وجدت عربة فول تقف أمامي فذهبت إلى البائع ووقفت قليلًا مترددًا، إلا أنه أشار لي فتقدمت..

– عايز تاكل ومعاكش فلوس؟

كانت تلك هي الحقيقة بكل بساطة، لكني لم أقدر على التصريح بذلك، و لم أنطق...

– خلّص ياض.. انت شحات وبيتّنّك؟

ضحك هو وشابان كانا يفطران عنده، فرحلت أجر جسدي حتى وصلت إلى السور المقام على الترعة، حيث يجلس عمال البناء المرتزقة ووقفت بينهم أنتظر، إلى أن ظهر أول من يطلب العمالة، فتدافعوا ليصلوا إليه، لكني تمكنت من مزاحمتهم والوصول إليه، ووجدت نفسي أخبره بأني أستطيع فعل أي شيء مقابل نصف اليومية، فأشفق علي وأخذني معه إلى مكان في الصحراء..

كان دوري أن أحمل "مقطفًا" يملؤه أحدهم بالتراب وأذهب لألقيه بعيدًا، تصورت أن المهمة سهلة، لكن مع انتصاف الشمس في السماء، وهبوطي وصعودي المستمر من الحفرة، أنهكت تمامًا، وصرت أفقد الوعي كل دقيقة أو أقل، لكني استمر في التقدم، ويعود لي الوعي محملاً بأوجاع عدة في مناطق عدة، حتى جاءت ساعة الراحة، فذهبت إلى صاحب العمل أخبرته بأني أريد أي شيء للأكل، فأعطاني خمسة جنيهات، اشتريت طبق فول بالبيض بجنيه وزجاجة حاجة ساقعة بجنيه وثلاث سجائر بنصف جنيه، وادخرت جنيهان ونصف، عاد لي القليل من النشاط، وأنهيت يومي، وأخذت عشرة جنيهات أخرى، أنفقت منها ثلاثًا كي أعود إلى العمار، أمضيت يومين على هذه الحالة أنام في حديقة الميدان القذرة، وأذهب مع العمال المرتزقة إلى الصحراء، أنفق سبعة جنيهات ونصف للأكل والسجائر و"الحاجة الساقعة"، وأدّخر

ثمانية جنيهات في جيبي، وفي اليوم الثالث حين أنهيت عملي أشار لي المشرف على الموقع، فذهبت.. نظر لي شذرًا وسألني عن بطاقتي.. أخرجتها.. تأملها قليلا وقال:

- انت سوابق يالا؟

- لا والله يا ريس.

- أمّال شكل أمك عامل كده ليه؟ احلق شعرك ده ياض واستحمَّى..

- حاضر يا ريِّس..

- انت بتبات فين؟

لم أجد ما أقول، ولا أدري ماذا جعله يستنتج ألَّا مأوى لدي..

إذا كنت سوابق ولا هربان من أي حاجة في أي حتة وجبتلي مشكلة هنا مش هيكفِّيني فيك حاجة، أما إن كنت غلبان وعايز تاكل عيش فروح استحمَّى واحلق راسك..

ذهبت بين العمال أشم رائحة عرقهم وأنظر لاتساخهم، فيملأني السخط على "الريِّس"، فأنا لست في مستوى قذارتهم دون شك، فهناك مثلًا ذلك الشيخ الذي تنبت له من ذقنه ذقنًا دهنية زائدة، وآخر أسنانه بنية اللون ووجهه مليء بالبثور، وآخر أنفه لا تتوقف عن إنتاج المخاط، وآخرين وآخرين، فلم اختارني أنا؟ ركبت أنا وثلاثة عمال "ميكروباص جمعية"، و لم نجد مكانًا للجلوس، فوقفنا طوال الطريق، وأخذت أتأمل كيف ينظر لي الركاب، وكيف يبتعدون كلما اقتربت، وكيف يتحاشون

لمسي أو الاحتكاك بي، نزلت إلى الشارع وسلكت طريق السوق أبحث عن حلاق ووجدته سريعًا، نظرت إلى المرآة فرأيت شخصًا آخر..

وجه مغطى بطبقة رقيقه من الوحل من أثر النوم في الحديقة، وبين مناطق انتشار الوحل تجري خيوط بيضاء دقيقة، رقبتي ملونة، وشعري يبدو ككتلة إسمنتية تتحرك معي حيثما أتحرك، وملابسي اصطبغت بلون زيتي، غير الرائحة التي ملأت بها المكان حين دخلت، لم أكن أدرك أني أبدو كالمتسولين، بل ربما أكثر قذارة .

كان الحلاق مشغولًا، فتركني قليلًا لأفكاري، وأخذت أتذكر آخر أيام قضيتها في بيتي، حين كنت أنفق ببذخ، وأدخن دون توقف، وأرافق المتعلمين إلى أماكن اللهو، وتذكرت حين كنت أقف يومًا مع أحد أصدقائي أمام مدرسة البنات وداعبت إحداهن.. فنظرت إلي وضحكتْ.. فابتسمت ونظرت إلى حالي مرة أخرى، فاندهشت.. كيف انقلب كل شيء في ليلة؟ ألم يفعل "سيد" نفس الفعل معي وسامحته وتعايشنا فترة كأصدقاء؟ ألم أعمل مع سيد مدة طويلة في نصفها لم آخذ أجرًا؟ كيف انتهى بي الحال إلى هذه الدرجة من التشرد؟ ولم وقعت أنا وحدي؟ وباغتتني ذكرى رامي وأشرف وعلي.. ترى أين هم الآن؟ كم كانت تلك الأيام جميلة وهادئة قبل أن يظهر عمار وسيد في الصورة!!

— انت عايز إيه؟

أفاقني الحلاق بسؤاله المستنكِر..

— أغسل شعري واظبَّطه..

لن أحلق شعري، فأنا لن أعيش بين الصحراء والنوم في الشارع،

سأعود إلى رخائي السابق..

– هاخد اتناشر جنيه.. معاك؟

– آه معايا.. توكل على الله.

لم يبدأ الحلاق الكلام كالعادة، لكن أنا فعلت بعد فترة صمت طويلة..

– انت مش هاتخلص ولا إيه؟

كان يتباطأ في جمع أدواته وغسل الموس وتعليق المنشفة وتدخين سيجارة، وكأنه يرغب في رحيلي حتى إن كنت سأدفع اثني عشر جنيهًا..

– هات الفلوس الأول..

شعرت بالإهانة، وقبل أن أدخل في شجار، نظرت إلى حالتي في المرآة فأدركت مخاوفه...

– هدِّيك خمستاشر بس أغسل هدومي وأعلقها تنشف..

لم تنجح أي محاولة من محاولاتي، واتفقنا على الاثني عشر جنيهًا في مقابل غسيل شعر ووجه ورقبة وساعدين، على أن أقوم أنا بالغسيل لنفسي، ثم "يزنجف" شعري ويدهنه بمادة لزجة، على أن يكون الدفع مقدمًا، خرجت من عنده بوجه جديد دفع في نفسي الحيوية، وقررت أن أعود وأواجه سيد حتى إن اضطررت لقتله.. لكني لن أعيش هذه الحياة، كما أني لن أدع أحدًا يعلم كيف قضيت هذه الأيام، وعودتي

بنفس الملابس التي رحلت بها لا يعيب، فقد يرتدي أي شخص نفس الملابس لمدة شهر، لكن حالتها هي المعيبة، أخذت أطوف بالشوارع حول منطقتي حتى قررت القرار النهائي ووضعت الخطة المحكمة، سأبيت الليلة في سيارة عم "حسين" دون أن أبلغه وفي الصباح أصطاد الأستاذ سعيد لآخذ منه الإيجار المستحق، وأذهب لشراء شيء أرتديه وأعود متأنقًا لمقهى الشيخ صابر، فإما يجد حلًا لمشكلتي مع سيد، أو يضطرني للشجار معه، وفي الحالتين ستنتهي تلك الأيام الرديئة .

تم كل شيء كما خططت إلا أن الأستاذ سعيد أعطاني خمسين جنيهًا فقط، ارتضيت واشتريت قميصًا بخمسة عشر جنيهًا، وبنطلون بثلاثين، وأكلت "كبدة وسجق"، وذهبت إلى المقهى فلم أجد الشيخ، كما لم أجده في محلاته، وسألت عنه كل صبيانه، لكني لم آخذ معلومة مفيدة، وفي الحقيقة أنا لم أكن ندًا لسيد يومًا، وأعلم أنه قد يقتلني دون أي عناء، وإن كانت موهبتي الوحيدة في الطفولة هي الغضب، فسيد موهبته الوحيدة طوال عمره هي العنف، وإن لم أكن مخدرًا كليًا يوم جاء يطلب نقوده لم أكن لأضربه أنا وأصدقائي المراهقين، و لم أكن لأنتقم من فعلته معي هو وعمار وعلي بمثلها، وحين كنت أفكر بالانتقام، لم أفكر سوى في قتله كي أتخلص من ردة فعله، والشيخ صابر قادر على إخماد ثورته، ويبدو أن بينهما مصالح مشتركة، فيوم العزاء كان الشيخان صابر وخليفة..

في هذه اللحظة فقط قفز اسم الشيخ خليفة في رأسي، وإن كان علي ذراعه الأيمن فقد أتمكن في يوم أن أكون الذراع الأيسر..

تجولت في شوارع العاصمة لأيام لا أدري عددها، مسلحًا بقطعة من سيخ حديدي، وجدتها في بيت غير مكتمل البناء أقمت فيه يومان قبل أن

يكتشف وجودي أحد الملاك، أنام صباحًا في حديقة عامة، رصيف غير مزدحم، أو أي عقار منسي من أصحابه، وقد يعجبني المكان فأعود إليه صباحين أو أكثر، وقد أفقده لأني لا أتمكن من العودة، وليلًا أنطلق وقد وضعت هذا النظام لأتماشى مع الحكومة، فإن نمت في أماكن عامة ليلًا سينتهي بي الحال إلى النوم في قسم الشرطة يوميًّا، أما صباحًا فالشرطة – مثلي – نائمة، أحمل السيخ الصغير وأنطلق في الشوارع المظلمة النائية، أبحث عن شاب هزيل أو طالب عائد من درس متأخر أو رجل مسن، لا أتعرض للنساء بكل أعمارهن؛ فأنا لا أجيد معاملتهن حتى في تلك الأشياء، في بعض الأحيان مجرد ظهوري يرهبهم، وفي أحيان أخرى أضطر لممارسة لعبة أو أخرى للضغط على أعصاب الضحية، أتحيَّن اللحظة وأظهر من الظلام...

– يا نجم.. كشِّكشِّك.. يا نجم.. مش بندهلك؟

– أنا؟

أسأله عن أشياء بلا معنى، فقط لأجعله يقف فترة معي، أظهر السيخ، أضع يدي على كتفه، وما إن يستقبل يدي فوق كتفه حتى يسيطر الخوف، ألاعبه، أتلمَّس مناطق خوفه، ثم أعود لأطمئنه، أرى التقلب في عينيه، فهو بين الانكسار والانتصار، يداري كِليهما بابتسامة كاذبة وكلام أخرق، يرتعش، يدَّعي الشجاعة، وحين أدرك أنه مستعد لأية تضحية كي يرحل، أخبره بالصفقة العادلة.. أعطني نصف ما معك من نقود وسجائر ترحل سالمًا، قاوم وارفض ترحل مصابًا، وآخذ كل ما معك..

رزقني الله أحيانًا بجنيهين أو ثلاثة من أحدهم، كما رُزقت أحيانًا بعشرات الجنيهات، وفي كل الأحوال كنت أكمل تسكعي بقواعده البسيطة.. ابتعد عن الحكومه، تصيَّد من يمشي وحيدًا، إن حاول أحد اصطيادك اهرب، آكل وأشرب، وأحاول قدر ما استطعت الاهتمام بشعري ومظهري، واقترب من منطقتي بحذر بحثًا عن الشيخ صابر، الشيخ خليفة، أو الأستاذ سعيد، ولم يوفقني الحظ أبدًا في إيجاد أحد الشيخين، لكني كلما صادفت الأستاذ سعيد أخذت منه عشرة أو عشرين جنيهًا كجزء من الإيجار، وفي صباح حار رديء استيقظت في حديقة عامة على صوت سيارة "الأتاري"، فركضت بعيدًا، وقادتني قدماي إلى منطقتي، ورأيت السيارة الحمراء الصغيرة تتهادى في مشيتها مقبلة تجاهي، فاستبشرت بعشرة جنيهات، ففاجأني الأستاذ سعيد برفضه، وأنه يدفع لي ليس لكون الإيجار مستحق، ولكن لأنه يرثي لحالي، أما أن أظهر له كل صباح أبتز منه مبلغًا فهذا لا يصح ولا يتحمله.. ساد الصمت لحظة، لكن خرجت الكلمة مني مهتزة من فعل الصدمة:

– ده حقي..

– حقك إيه يالا؟ ده انت لا معاك عقد ولا وصل مية ولا نور، ولا انت حتى قاعد في البيت، أديك أنا إيجار بتاع إيه؟

– ده بيت أبويا..

– الله يرحمه.. بس انت مالكش حاجة فيه، وغور من وشي بشكلك العكر ده عشان مستعجل..

الجوع والرصيف والتشرد والضعف خرجوا جميعًا يواجهونني من

كلام الأستاذ سعيد، الغضب كان سلاحي الوحيد، لكني فقدته منذ أمد بعيد، لكني تأكدت الآن أن بريقه لم يزُل، وأن آثار الدماء على يدي وملابسي الرثة وزجاج السيارة المحطم وجسد الأستاذ الملقى على الأرض دليل كاف على عودتي إلى موهبتي، احتشد الناس بينما كنت أفتش في جيوبه عن شيء ذي قيمة، وحاولوا مرارًا نزعه من بين يدي، لكني لم انته بعد من تفتيشه، والشمس تحرق رأسي، والأيادي بدأت تلكمني، وأرجل تأتيني من هنا وهناك، إلى أن ركلني أحدهم بقوة في رأسي، فقررت أن أستدير وأواجهه، و لم أر سوى حذائه يركض بسرعة مذهلة تجاه عيني، وأفقت في سيارة الشرطة على "كشاف" استقر تمامًا على جبهتي، ودفعت دفعًا إلى داخل القسم، ورأيت الأستاذ سعيد جالسًا يغطي نصف وجهه بشاش وقطن طبي، وينتشر الدم على ملابسه، فتملكني الشعور بالنصر وقلت:

– أنا عايز اعمل محضر يا باشا..

ضحك الضابط ذو الوجه الأبيض النحيف فاستبشرت خيرًا، لكنه انقلب في لحظة وصرخ في وجهي، فارتبكت وبدأت في تأليف رواية حول اعتداء الأستاذ سعيد عليَّ، و لم يسمع الضابط منها سوى كلمتين، وأشار لي بأن أسكت، جاء بعد لحظة أمين شرطة مهول الحجم..

– ارمى الاتنين دول في الاستيفا..

أخذني الأمين من ذراعي، وفي الطريق القصير إلى الاستيفا سألني:

انت منين يالا؟

فأخبرته بعنوان البيت الذي تأكدت اليوم أني فقدته..

– مانتاش سوابق؟

– يا باشا أنا متعلم..

جلست جوار الأستاذ على الأرض، ونظر إلي بكراهية، فتذكرت وجهه الطيب أيام طفولتي وشبابي الأول، هو رجل محبوب في منطقتنا، لديه سيارة، أبناؤه يتعلمون، زوجته لم تشترك في شجار أبدًا، هو مميز وله حضور طاغ في مباريات كرة القدم أو في المناقشات حول أكواب الشاي والشيش على القهوة، هو رجل لم اتمنَّ يومًا أن أوذيه، حتى عندما كان يتأخر في سداد الإيجار كنت أسامحه، وحين قام أصدقاء "سيد" بضربه وسرقته اعتذرت له ورددت النقود كما كانت، ودفعت ثمن كل ما تلف أو فقد في شقته...

لكنه اضطرني اليوم لذلك، فأنا لم أطلب منه سوى حقي، وهو من رفض، وخرجت الجملة من فمي بتلقائية:

– ليه كده يا أستاذ؟

وتذكرت أيامي التي قضيتها في تصيُّد الطلبة من الشوارع الجانبية وإرهابهم بسيخ حديدي لأستخلص من جيوبهم جنيهين لأفطر أو أبتاع السجائر، وكيف كنت أدور حول قهوة الشيخ صابر من بعيد لعلي أراه قبل أن يراني سيد، وكيف كنت أمني نفسي بعودة إلى بيت وعمل، والآن أوقعني الأستاذ في الشيء الذي طالما ابتعدت عنه، في الشئ الوحيد القادر على إخافتي الآن.. الحكومة...

ظهر ساعٍ أو فراش أمامنا وقال:

– انتو ضاربين بعض؟

– أنا اللي مضروب وسايح في دمي أهو وقاعد كأني مجرم.

قالها الأستاذ في ثورة غضب، واعتقدت أنه سيلقى عقابًا مؤلمًا لاعتراضه على الحكومة، لكن الفراش أو الساعي انحنى عليه وهمس بكلام سمعت قليلًا منه واستنتجت الباقي، أخبر الساعي الأستاذ سعيد بأنه في كل الأحوال سيضطر للمبيت في الحجز ليعرض معي على النيابة صباحًا؛ لأني في كل الأحوال سأحدث إصابة في جسدي وأدعي أنه هو من سببها.

قام الأستاذ بعد مدة إلى مكتب الضابط و لم يعد، جلست وحيدًا أنتظر أن يأتي دوري كي أقول شكواي أو يأخذ أحد أقوالي، أو يخبرني إلى متى أنتظر هكذا، لا أعرف ما يتوجب علي فعله، تجاهلني الجميع لساعات، وغلبني النعاس، وأفقت على صوت الأمين، ورأيته يقف أمامي، وتعمد تجاهل نداءاتي فتجرأت وقررت المغامرة، وتحركت تجاه الممر الضيق الذي يبدأ بالبوابة وينتهي بالحجز، وعن يمينه ويساره مكاتب مغلقة والاستيفا.

اعادتني قبضة حديدية إلى مكاني دون أن يقول كلمة، لكمني وأشار إلى حيث كنت أجلس، فجلست ورضخت، وانتظرت طويلًا حتى جاء شاب في العشرينات من عمره، نظر إلي بخمول، وجلس جواري، ثم بعد مدة أقل جاء مراهق يبدو كالمتسولين وبصحبته فتاة تصرخ وتبكي وتستغيث، جلسا جوارنا فزاد بكاؤها، وكانت تبكي بصوت متكرر

يبدأ كالصراخ ثم يقل تدريجيًّا حتى ينتهي، ولحظة من الهدوء وصرخة من جديد، وكلما حاول رفيقها تهدئتها صرخت في وجهه بكلام غير مفهوم، فنطق الشاب الآخر:

– ما تخرسي يا بت ال... مش عايز صداااااااااع.

وبدا وكأنه يتحول، فاحمرت عيناه ولكم الأرض مرارًا بقبضته ثم هدأ، فعادت هي إلى البكاء، فقام إليها، وقبل أن يبدأ في ضربها أصبح صراخها مزعجًا لدرجة لا تحتمل، فجاء الصول وقادنا نحن الأربعة إلى مكتب الضابط ذي الوجه الأبيض النحيف..

كانت الفتاة تبكي، ورفيقها تائه، والشاب الآخر هادئًا وواثقًا كأنه اعتاد هذا المشهد، وأنا أتأمل الجميع، أشار الضابط للصول فبدأ:

– الواد والبت يا باشا قفشناهم في توك توك..

أشار له الباشا فتوقف عن الكلام، وتكلم الباشا قليلًا مع الفتاة، فعرف أنها طالبة في معهد حكومي، وأن الفتى – عشيقها – سائق توك توك، وقرر الباشا أن ينتظرا قليلًا حتى يأتي من يضمنهما، ثم أشار إلينا وقال للأمين:

– الاتنين دول ينزلوا الحجز.

صعقت من وقع الكلمة، وقبل أن أتكلم دفعتني يد إلى الخارج، وجاء خلفي الشاب الآخر...

دخلنا حجرة ضيقة كريهة الرائحة بدرجة لا يمكن وصفها، ومظلمة تمامًا، وأخرج الشاب "موس" من فمه، وخلع قميصه، وصرخ في الجميع:

– اللي عايز حتة يبجي وأنا ادِّيله..

جلس في ركن قريب من الباب، ووقفت وحدي أمامهم لا أدرى ماذا أفعل، حتى جائني أحدهم، وكان وجهه مقسمًا إلى ثلاثة مناطق بفعل قطع عرضي في وجهه أسفل أنفه حتى أذنه اليسرى، وحرق أكل أذنه اليمني وحاجبه وأجزاء من رقبته، كان يقترب مني زائغ العينين، يرتدى سروالًا قصيرًا لا غير، وعضوه يبدو منتصبًا، ما إن رأيت يديه تتحركان حتى ركلته بكل قوتي فلم ينطق، بل بدت عليه السعادة، ووقف أمامي كاشفًا عن أسنانه كثيرة الألوان ولعابه اللزج، ولامس فخذي بعضوه، فثرت عليه وأمسكت برأسه، وقبل أن أسحقها على الجدار أفلت مني وأشار بيديه أن أهدأ دون أن يتوقف عن الابتسام أو تثبت عينيه في مكان، ابتعد عني قليلًا؛ فجلست على الأرض أتأمل الوجوه؛ فجاء شاب آخر يبدو مسطولًا تمامًا يعرج على قدم واحدة وبوجهه عدة جروح، قال:

– انت بتشبِّه؟

أدركت أن التراجع للحظة يعني النهاية، وتملكني الغضب دون دافع محدد، ولا أدري تحديدًا ما حدث، لكني أفقت وأنا أنطح رأسه برأسي وأركله بركبتي في معدته، ومن خلفي أحدهم يحاول تخليصه من يدي، استمر الشجار لمدة طويلة، كنت قد تلقيت ثلاثة طعنات في ظهري وكتفي وفخذي من أداة حادة في يد صديقه، وهشمت رأسه تمامًا وسال الدم من وجهه، فاستدرت لصديقه لكني لم أره.. اختفى بين الجالسين والنائمين، ولم أتمكن من البحث عنه، فالضوء الوحيد الذي يصاحبنا هو ذلك المتسلل من بين القضبان الحديدية الغليظة المقامة على النافذة الوحيدة في الغرفة، ثم غمر الضوء الغرفة فتمكنت من التعرف على وجه

الوافد الجديد، فهو أحد أصدقاء سيد المقربين، دخل وكأنه معتاد على المكان، فنظرت له بتحدٍّ؛ فتأملني قليلًا، ولا أعرف إن كان تذكرني أم لا، لكني فوجئت بأياد تمسك بي وتشل حركتي تمامًا، بينما يده هو تفتشني، وحين تأكد أني لا أملك شيئًا تركني وتركوني، جلست على الأرض منهكا جوار الشاب الذي دخل معي، ولم ينطق أحد بكلمة، كان الركن الأوسع في الحجز يستعمل كدورة مياه، به حفرة لا أعرف إن كانت حمامًا بلديًّا أو مجرد حفرة.. ومن فوقه أنبوب يقطر بالماء لمدة ثم ينقطع، ولم يكن لذلك معنى، فأغلب النزلاء يقضون حاجتهم إلى جوارهم أو جوار رفقائهم، رغم أن البعض يستعمل تلك الحفرة بحرية تامة وكأنهم غير مرئيين، فترى ما ترى ولا تقدر على الاعتراض، إلا أني لم أقدر على السكوت حين قام الشاب ذو العضو المنتصب وخلع باقي ملابسه وبدأ يستحم، والآخرون إما يشاهدونه في صمت أو مشغولون بأمورهم الشخصية، وكل ما قلته:

– ينعل أبو منظرك..

فالتفت إلي باسمًا وأشار لي أن آتي، فبصقت عليه، وبدأ يؤدي دور العاهرة في غنج، وبدأ النزلاء يستمتعون بالمشاهدة، وخرجت أصوات ضحكات من بعضهم، فزاده ذلك حماسًا، وأخذ يشير إلي، لم أكن أراه بوضوح في ذلك الظلام، ولم أكن أعرف إن كان يقصدني أنا بكل ذلك العرض أم لا، لكني تأكدت حين جاء شاب يدفعني إليه فاشتبكت معه، ثم جاء آخر وآخر يدفعونني إليه، بينما الضحكات من حولي تتزايد، وأنين غير مفهوم يصدر من أحد الأركان، لم أقدر على مقاومة عددهم المتزايد، فبدأت في الصراخ والاستغاثة بينما أقترب منه، وتساقطت على وجهي قطرات من الماء، بينما أنا مستمر في الصراخ والركل واللكم دون

جدوى، نزعوا عني سروالي وانكشفت عورتي، فأخذت أبصق وأضرب وأحاول الابتعاد ضامًّا عضلات مؤخرتي حتى لا يغفالني أحدهم، وبينما أقاوم انفتح الباب فتحررت، ودخل مخبر ضخم البنية، وبينما أسوي ملابسي قام صديق سيد بتحية المخبر ووقف إلى جواره، وقبل أن أقف من جديد جائتني صفعة من يد المخبر، ثم ركلة من قدم صديق سيد، ونال كل من اشترك في الفوضى أو لم يشترك صفعة أو أكثر، ثم صارت المجموعة التي تضرب ثلاثه محجوزين مع المخبر، واستمروا في لكمنا وركلنا زمنًا، و لم يجرؤ أحد على رد ضربة أو حتى المقاومة، ونال الشاب العاري نصيب الأسد من التشريفة، ثم هدأ الوضع واستقر، فجلست على الأرض منهكا تمامًا، أشعر بالخزي والمهانة، وبدأت أشعر بجروح كتفي وظهري وهي تسرِّب دمي إلى الخارج، فسقطت نائمًا أو مغشيًّا عليَّ، لكني استيقظت على تشريفة جديد، وكان الظلام كاملًا وقتها، فلم أميز من يضربونني، كانت أيديهم مهولة، الكف الواحد يزن كيلو أو اثنين، والصفعة محكمة لا تضل طريقها عن وجهي أو جبهتي، هدأت الأوضاع من جديد، ودخل بعدها شاب طويل الشعر له لحية نابتة كثير الكلام، يبدو مرحًا، أخرجوا من جيبه علبة سجائر، لكنه كان يخبئ ما هو أقيم، فدار على الكبار يوزع عليهم البرشام، وضمن الأمان بنكاته وقفشاته، ثم أشعل جوان مع صديق سيد، وكان يبدو عليه كأنه الزعيم في هذا السيرك، وبعد ساعات نام صديق سيد على الأرض، وقام الكثير منا واقفين كي نوفر له مكانًا ليتمدد، وكان الشاب الذي دخل معي لا يزال قابعًا في مكانه، بينما الآخر ذو الوجه المقسم والسروال القصير مكوم في ركن من آثار الضرب، ففتح الشاب المرح الحوار معي قائلًا:

– مالك؟

لم أجد شيئًا أقوله، فبقيت صامتًا، فقال:

– خد ولّع..

وضع بين شفتي جوان وأشعله، كانت الرائحة النتنة في الغرفة، والظلام الدامس، والحر الشديد أهون ما أشعر به، فكل ما أخافني هو أني لا أعرف كم من الوقت سأمضي بين تلك الكائنات، كما كنت أشعر بمهانة لا توصف، وغضب مكتوم يكاد يقتلني، والجوان بدأ يدور برأسي، فأخذت في ركل الباب ونطحه بينما أصرخ، فجائني الصوت من أحدهم جواري..

– اتهد يالا ومتجيبلناش الأذى.

وجذبني أحدهم من ذراعي إلى الأرض فجلست في مكاني بين قطع مجففة من الخراء، وقال الشاب المرح:

– خليك كويس تعيش كويس..

وانفتح الباب من جديد بعد فترة ولم يدخل أحد، لكنهم بدأوا في النداء على أسماء، وكل من يسمع اسمه يركض إلى الخارج، وبعد فترة لم يبق سواي أنا وستة آخرين، ثم جاءتنا دفعة جديدة، فقمت أنا والستة الآخرين إليهم تلقائيًا، وبدأنا في تفتيشهم بحثًا عن ما يؤكل أو يدخَّن، وفزت بسيجارة لم أدخِّن نصفها، وجاءتنا التشريفة الميري، وبعد وقت قضيته في محاولة النوم ومراقبة الشاب ذي السروال القصير وتدخين أعقاب السجائر، اضطررت إلى استعمال الحمام البلدي، ولم أبالِ بكل من يشاهدون فعل الإخراج ويشمون الرائحة التي تملأ المكان، والتي لم تتغير كثيرًا بإضافتي المتواضعة، عاد صديق سيد ولحقته بمدة

قصيرة التشريفة المختلطة من المحجوزين والمخبرين، فقمت أضرب مع من يضربون كي لا أقع ضحية مرة أخرى، وبينما كان الشاب المنتصب يداعب عضو أحد الرجال بيديه وفمه، دخل إلينا طعام مقدم إلى أحد المرفهين معنا، تعفَّف عنه الكبار، فتشاجرنا عليه وظفرت بشقة فول، ثم بدأوا في نداء الأسماء من جديد، وجاء اسمي بينهم هذه المرة فقفزت إلى الخارج، وكدت أفقد الوعي من تأثير الضوء والهواء النقي، لكنني تمالكت نفسي، وقادني المخبر إلى مكتب نفس الضابط ذي الوجه النحيف.

كان الأستاذ سعيد جالسًا أمام المكتب، وعندما دخلت قال الضابط:

– احنا روَّقناه ترويقة فل، لو عايز تعمل محضر نعمله دلوقتي.

نظر إليَّ الأستاذ سعيد وكان في وجهه بعض الآثار، لكنه ابتسم ابتسامة النصر..

– لا خلاص مالوش لزوم يا حضرة الظابط.

– خلاص اتفضل انت يا أستاذ وبلِّغ الحاج خليفة السلام.

انصرف الأستاذ سعيد وتركني مذهولًا.. فمن الواضح أن الحاج هو الشيخ، وأنه حقًا ذو نفوذ قوي حتى يبعث له الباشا التحية، كما أن علي ذراعه الأيمن، والأستاذ سعيد على معرفة به، هذا الرجل دون شك هو فرصتي في النجاه..

ألقى إلى الأمين ببطاقتي الشخصية، وخرجت إلى النور، امتنعت عن التفكير فيما حدث في الداخل، وكلما حاولَتْ ذكرى أن تتمثل أمامي طردتها من رأسي، وبينما أطارد تلك الذكريات رأيت سيارة الأستاذ

ولم يكن هو داخلها، فانتظرته عندها.. في البدء كنت أنتظره لأبتز عشرة جنيهات أو أي مبلغ، لكني عندما طال الانتظار وذكريات الحجز تطاردني قررت اتباع نصيحة الشاب الوحيد الذي دخل الحجز مبتسمًا: "خليك كويس تعيش كويس".

ارتبك الأستاذ سعيد حين رآني جالسًا فوق سيارته، فسأل بطريقة افتعل بها الشجاعة:

– إيه.. ما كفّاكش اللي حصل لك؟

– أنا جاي أحب على دماغك يا أستاذ واقولك حقك عليّ.

كلمتي اعتذار مني وكلمتي توبيخ منه وانتهى الحوار، ورأيت أني لم أحصل على شيء.. فتجرأت..

– عايز اشتغل شغلانة محترمة يا أستاذ.. ما تعرفش حد يشغّلني؟

فرد نافيًا.. فألحقته بالسؤال الأهم..

– مين الحاج خليفة اللي الضابط باعتله السلام ده؟

فانتفخ وملأه الزهو..

– ده واحد صاحبي.. انت ما تعرفش الشيخ خليفة؟

– شكله واصل يعني.. ما عنهدوش شغلانة ليّ؟

كان إلحاحي أكبر من رفضه، فأعطاني عنوانًا أذهب إليه وخمسة جنيهات "جدعنة"، وقال:

– لعلمك البيت ما عادش يخصك، وشقتكوا اللي تحت اتباعت من زمان، وأحسنلك تنسى الحوار بتاع الإيجار ده عشان انت ما عندكش ورقة واحدة تثبت..

لم أهتم كثيرًا؛ لأني حصلت على ما أريد، وهو عنوان الشيخ خليفة وخمسة جنيهات، أكلت وطرت إلى العنوان، وحين وصلت اكتشفت أنه "سنترال"، وسألت في الداخل عن الشيخ، فردت الفتاة المنقبة أنه على وصول، فانتظرته.. دخل بعد فترة رجل طويل اللحية ضخم يرتدي جلبابًا أبيض ويبدو عليه العز، فأدركت في التو أنه هو، فقمت إليه أحييه وطلبت الانفراد به، فخرجت الفتاة تنتظر بالخارج، وجلس الشيخ على الأريكة وباعد ما بين ساقيه ورفع جلبابه إلى ما فوق الركبة، وقال وهو يتفحصني:

– اؤمر..

– العفو يا حاج.. أنا بس قاصدك.. أنا سمعت إنك راجل بتعمل خير..

ارتبكت فيما أود قوله.. فهل أشتكي سيد، أم أطلب عملًا، أم أسأل عن علي؟ ووجدت نفسي أقص عليه..

– أنا كان ليا بيت وشوية بلطجيه طردوني منه، وبقيت متشرد لا مؤاخذة لا بيت ولا شغل..

– أنا لا بعمل خير ولا برمي حاجة في البحر.. بس ممكن أشغّلك معايا.. شكلك متشرد بصحيح، بس أكيد لافف وعارف الدنيا ماشية ازاي.. هات بطاقتك.

أعطيته البطاقة فأخذها في جيبه وقال:

– أنا عارف أولك من آخرك، بس انت ما تعرفنيش، روح استحمى والبس حاجة نضيفة واحلق شعرك ده وتعال استلم الشغل هنا.. لو أخدت مني جنيه سرقة وسافرت الصين هتلاقي اللي يطلّعه بلا على جتتك هناك...

– لا مؤاخذة يا شيخ.. بس أنا لا عندي مكان استحمَّى فيه، ولا عندي حاجة ألبسها..

أخرج عشرين جنيهًا..

– تحلق موس بخمسة جنيه وتتوضى عند الحلاق، وتجيب جلابية بخمستاشر وتجيني لابسها بعد ساعة..

نفذت ما قاله بالحرف وعدت، لم أجد الشيخ حين عدت بعد أقل من ساعة، لكن الفتاة أبلغتني أن أذهب إلى عم "عبد المقصود" غفير العقار المجاور، فذهبت ورحب بي الرجل الهرم المهلهل وقال:

– دورة المية تلاجيها على يمينك بعد السانسير، هتلاجي فوطة نضيفة وصابونة..

فهمت ما عليَّ فعله، فدخلت إلى دورة المياه، وهي لم تكن أكثر من ثلاثة حوائط وستارًا يمثل الرابع، وصنبور معلق فوق قاعدة بلدي ومرآة صغيرة ولمبة خمسمائة واط تحرق وجهي، وكأنها بالنسبة لي كانت الجنة، خلعت ملابسي واستمتعت بملامسة الماء لرأسي الحليق، واندهشت من لون الماء، عشرات الألوان تظهر في الماء، يغلب عليها الرمادي بدرجاته،

والبني والأحمر في اختلاطهما مدة طويلة، و لم يتغير لون الماء، والصابونة مستمرة في الاحتكاك بجسدي، حتى مناطق الجروح في ظهري وكتفي لم أرحمها، حتى سيطر اللون الأحمر على بقية الألوان في الماء، و لم أكن لأتوقف حتى جاءني عم عبد المقصود..

– يا ولدي خلِّصْ، ييجي خمس صنايعية عايزين دورة المية.

فتح الستارة ونظر لي في ذهول..

– وَه.. ولا كأنك امغيَّر دلدك..

ارتديت جلبابي وخرجت إلى الشارع، كان معي جنيه متبقٍّ من نقود الأستاذ سعيد فأنفقته ثمنًا لستة سجائر، ووقفت أدخن وأنا أستمتع برؤية المنطقة من حولي، كانت فيما سبق أرضًا زراعية بكاملها، وسكانها الأصليون ما زالوا يظهرون بين السكان الجدد بزيهم المميز وبهائمهم أمامهم أو خلفهم أو تحتهم، وبين كل بناية ضخمة أو اثنتين يظهر حقل هزيل صغير أو أرض فضاء، أما السكان الجدد فهم يسكنون في بنايات ضخمة مكونة من عشرة طوابق أو أكثر بها مصعد كهربائي، وأحيانًا اثنين تنتشر بينهم الموبايلات والسيارات، لكنهم ما زالوا قلة لأن أغلب الأبراج ما زالت غير مأهولة، وإن كانت وحداتها كلها مباعة، كما أنه على الطريق الواسع غير الممهد ما زالت هناك العشرات من الأبراج تنبت.

تجولت قليلًا وحين أنهيت سيجارتي الثالثة خطرت لي فكرة أني لن أعود إلى ذلك الوضع المأساوي من النوم في الطريق وتصيُّد الطلبة بالسيخ – الذي لا أعرف متى فقدته بالتحديد، والحجز وكل تلك المأساة التي مررت بها منذ تركت بيتي لسيد ورفاقه، ووفقًا لكلام الأستاذ هو لم يعد

بيتي الآن، وعليَّ أن أجد عملًا وبيتًا، وأكون ثروة، وأنام في مكان نظيف، وأرتدي دائمًا جلبابًا نظيفًا، وأتزوج وأنجب أطفالًا وأجعلهم أسيادًا على الأرض ثراء ونفوذًا وسلطة، انتعشت بسبب تلك الأفكار وعدت إلى السنترال، فرأيت الفتاة تستعد للرحيل، فسألتها مصطنعًا الأدب:

– حضرتك ما تعرفيش الشيخ جاي إمتى؟

– لأ هو خلاص فات على العمارة بتاعته، وهو ما بيجيش هنا إلا أما يكون في العمارة.

– طب من بعد إذنك هي أنهو عمارة؟

فنظرت لي بتعجب وبدا من تحت النقاب وكأنها تبتسم..

– عند عم عبد المقصود.

تأملت البناية الضخمة ذات العشرة طوابق الصالحة للسكن كبناء، لكن أعمال التشطيب ما زالت تجري داخليًا وخارجيًا، دخلت وكان عبد المقصود نائمًا، فبحثت عن مكان يصلح لاستقبال الجلباب الجديد ويليق به، ووجدت ضالتي في شقة بها مرتبة وباجور يبدو أن الصنايعية يستعملونهما، لكني لم أتردد، واستسلمت للمرتبة، واجتاح الألم جسدي ما إن استلقيت فوقها، شعرت بكل أطرافي وأعضائي تتلوى بنشوة، كان الجرح في كتفي قد توقف عن النزيف، لكني خشيت أن يتجدد النزيف أثناء نومي فيلون الجلباب، فقمت خلعته ونمت عاريًا.

في اليوم التالي تسلمت عملي في السنترال مقابل خمسة جنيهات يوميًا ومائة جنيه آخر كل شهر، وكنت أنام في أي مكان من بناية الشيخ،

واعتدت الاستحمام عند عبد المقصود، وتدخين أحجار المعسل معه، وتعلمت خبايا السنترال سريعًا، و لم أكن أنوي سرقة الشيخ الذي منحني حياة جديدة، لكني لم أكن أمانع في إضافة نصف أو جنيه على حساب كل من يبدو أنه لن يجادل، وأخرج في نهاية اليوم بخمسة جنيهات على الأقل في جيبي بعد أن أكون بددت الخمسة جنيهات على السجائر والإفطار والشاي .

كنت أتناوب أنا وفاطمة على العمل في السنترال، هي تبدأ في تمام الثامنة صباحًا، وترحل عند الرابعه عصرًا، وأبدأ أنا من بعدها مباشرة وأغلق السنترال وقت ما يحلو لي، وأصبحت جزءًا من البائعين في الشارع، وعقدت صداقات مع بعضهم، كما أن السكان الشباب يترددون علي باستمرار، فصرنا نتبادل النكات والقفشات.

استمرت حياتي على هذه الحالة فترة قصيرة، كنت خلالها قد استقريت في شقة في الدور الثالث لا أصحاب لها، ورضي عبد المقصود أن أبيت فيها بدوافع معلنة وهي المساعدة والإنسانية، وأخرى خفية هي ألا أبيت إلى جواره، فهو برغم وحدته الكاملة في ذلك العمر المتأخر، ومعرفته لكل من في المنطقة سكان أو بائعين، إلا أنه كان يحتفظ لنفسه بقدر غريب من الخصوصية، وكنت أقضي ساعتين أو ثلاثة من كل صباح أستمتع بإثارة أعصابه، وأستمع إلى قصصه، وأتبادل السجائر معه وأشرب الشاي، لكني لم أفهم يومًا كونه وحيدًا، و لم يكن يقص شيئًا عن نشأته أو أسرته، رغم أنه تكلم في كل شيء آخر بكل حرية، ولذلك حرك فضولي وأطلق لخيالي العنان، كثيرًا ما اشتركنا أنا وهو في إعداد وجبة غداء حين نضجر من الطعام الجاهز ولا نهتم بترشيد نفقاتنا، وكان لي عدة أصدقاء غير عبد المقصود، فعملي في السنترال جعلني

أحتك بكل سكان المنطقة، فهم إما يحملون هواتف نقالة، وبالتالي يحتاجون لخدمات الشحن وتحويل الرصيد، أو لا يحملون هواتف وبالتالي يحتاجون لخدمة "الدقيقة بنص جنيه".. كما أن هناك البعض ممن يحتاجون للتليفون الأرضى أو الاتصال بأماكن خارج حدود القاهرة.

كما اختلطتُ بالتجار والعمال في المحال القليلة التي تشاركني الرصيف أو الرصيف المقابل، وكنا نتبادل الحديث في لحظات الضجر حين يختفى الزبائن، لكن أكثر ما يشعرني ببهجة النصر هي تلك اللحظات التي تدخل فيها أنثى إلى السنترال، فأتعمد النظر لها بتبجُّح حسب نصيحة أحد أصدقائي الجدد، فهي إما تبتسم وترضى أو تعبس، لكن لا تثور، ونادرًا ما ردت عليَّ إحداهن الابتسامة، لكني كنت أستمتع بتأويل إيماءاتها والتفاتاتها وفق ما يحلو لي، فتلك تريدني لكنها تخجل، وهذه مستثارة مستعدة لأي رجل.. ومئات التفسيرات... لكني لم أضف شيئًا بعد النظرات وسرقة النصف جنيه أو الجنيه إن أمكن وأقص بعد ذلك ما حدث لأصدقائي البائعين والشباب ساكني المنطقة حين نجتمع قبيل الفجر أمام السنترال في الجهة المقابلة من الشارع ندخن جوان أو اثنين ونضحك ونقهقه على أتفه الأسباب، ونتشاجر ونطارد بعضنا ركضًا في الطريق مسببين إزعاجًا لا مثيل له، ودائمًا ما انتهت جلستنا تلك إلى شجار حقيقي وعداوة نتسلى بإحداثها قليلًا، قبل أن تزول في اجتماع آخر حول جوان آخر، فيقص أحدنا عن إحدى مغامراته في الجنس أو المخدرات أو المعارك، فيتدفق الحديث في نفس الاتجاه، يقص كل منهم عن أحداث مشابهة، والجميع لهم نفس الماضي تقريبًا، إلا أنا.. احتفظت بكل ما أحمل من ذكريات داخلي، لا أشاركها مع أحد، فهي مجموعة متتالية من الهزائم دون نصر أو فخر وحيد .

وذات صباح استيقظت وارتديت ملابسي – وكنت أملك وقتها بنطلونًا وقميصًا إلى جوار جلبابين، خرجت لأجد عبد المقصود يجلس مع الشيخ خليفة في مدخل العمارة، وما إن رأيت الشيخ حتى ارتبكت وتعثرت في خطواتي، فقال الشيخ:

مالك ياض؟ انت ضارب ع الصبح ولا مطبَّقة معاك؟

فهمت أنه يقصد الحشيش، فأجبت نافيًا بشدة فقال:

– ومالك اتحمقت كده ليه؟ ما بتشربوش ولا إيه؟

فارتعدت خوفًا من أن أعود إلى الشارع، وقفزت إلى ذهني ذكريات الحجز والجراح في ظهري والإهانات التي تلقيتها في الداخل وأيام الجوع والعمل في الفاعل وأيام تصيد التلاميذ في الشوارع المعزولة... كل شيء مر في رأسي متداخلًا متشابهًا، لا يختلف سوى في قدر الجوع والإهانة والإرهاق الجسدي، لم أعرف كيف أجيب، فقد كنت على استعداد تام لأن أفعل أي شيء لكي أضمن رضا الشيخ، لكني لا أعرف كيف أخبره بهذا .

لحظة طويلة مرت قبل أن أدرك أن الشيخ قد صرف انتباهه عني وعاد لحديثه مع عبد المقصود، فجلست على الأرض حتى خرج عبد المقصود يبحث عن شخص طلبه الشيخ، فركضت إليه..

– انت في حاجة مزعَّلاك مني يا شيخنا؟

– وأنا إمتى كنت راضي عنك يالا؟

لم أقدر على الكلام..

– إوعى ياض تكون فاكر إن شغلانة الحريم اللي انت شغّالها دي، والمخروبة اللي بتنام فيها، والفلوس اللي قاعد تقلبها مني ومن الزباين دي تخليك واحد من رجالتي ولا حتى صبياني..

– طب أعمل إيه يا شيخ عشان أبقى من رجالتك؟ تؤمرني وأنا أنفذ.. بس الله يرضى عليك ما تقطعش عيشي.

– تسلّم فاطمة الشغل الصبح وتجيلي ع العنوان ده.. أنا كنت هابعت واحد من الرجالة بس انت طلعت ف وشي.

أعطاني ورقة مطبوعة بها عنوان لمطعم في شارع قريب، أمضيت اليوم كأي يوم آخر، لكني كنت أسرح كلما خلوت إلى نفسي في رؤى النجاح في ما يطلبه الشيخ، وأن أذهله بأدائي حتى أصبح ذراعه الأيمن، وأرتدي بدلة ورباط عنق، وأتنقّل في سيارة سوداء، وأودع إلى غير رجعه أيام البؤس، لم يكن لدي أي تصور حول ما سيطلبه الشيخ، لكني كنت واثقًا أنه عمل مهم وصعب، لذلك أصبت بالإحباط حين أدركت أن كل دوري هو مرافقة علي إلى مشوار..

لم يتكلم علي معي أو حتى يرفع عينيه إليَّ، وأوقف تاكسي، أنزلنا في شارع مزدحم، دخلنا إلى برج ما، وفي الطابق العاشر قابلنا رجل أصلع مهيب في الخمسينات من عمره، له شارب أبيض ونظرة واثقة، أعطى علي حقيبة أخذناها وعدنا إلى الشيخ، لم يخب ظني، فتحها الشيخ أمامنا وكانت النقود مكدسة بلا نظام، أعاد الحقيبه إلى علي فانصرف، وبقيت وحدي مع الشيخ، ورأسي مليء بالأسئلة...

أخرج الشيخ حافظة نقوده وقال:

– ياض أنا قلتلك إني ما بعملش فيك خير، بس أنا حقَّاني، خد امسك..

ناولني خمسين جنيهًا، فذهلت.. وسألت بعد أن أخذتها منه:

– دي ليَّا أنا يا شيخ؟

– مالك ياض مش مصدق نفسك؟ انت شغلك في السنترال زي ما هو، وكل ما هحتاجك في مشوار هراضيك.. اتكل على الله دلوقتي..

لم أفهم تحديدًا ما حدث، وخرجت مذهولًا لكني ثري، ومعي خمسة ورقات من فئة العشرة جنيهات، أو عشر ورقات من فئة الخمس جنيهات، أكلت وشربت "حاجة ساقعة"، واشتريت قميصًا جديدًا ارتديته، ثم عدت استلمت السنترال من فاطمة وأنا ما زلت مندهشًا.. هل حقًّا سيكون الحصول على خمسين جنيهًا بهذا اليسر؟ دخلت فتاة ممتلئة في ذروة مراهقتها طلبت الهاتف وابتسمت، فلم أدرك حقيقة الأمر، ونظرت إليها بارتياب، فتيقنت إنها تبتسم لي أنا.. حقًّا!

وتذكرت كوني ثريًّا، والخمسين جنيهًا السهلة، فشعرت وكأن الحظ يبتسم لي أخيرًا، وأن هذه الأيام أيامي، أنهت مكالمتها وأرجعت الهاتف:

– كام؟

قالتها بصوت أثار داخلي رغبات منسية..

– لأ دي خليها علينا..

وابتسمت ابتسامة مرتعشة، بينما ترددت.. هل أنظر مباشرة في وجهها، أم أخفي وجهي في الأرض كي لا تدرك ارتباكي؟!!

– لأ بجد كام؟

كانت سعادتي لا توصف بهذا النصر العاطفي والجنسي الأول في حياتي.. فقد ابتسمت لي مجددًا وتخاطبني بود.. بل بغنج!

تمسكتُ بألَّا تدفع ثمن المكالمة حتى اقتنعت..

– شكرًا.. ربنا يخليك.. بس انا لازم أدفع وإلا مش هاجي تاني..

– لأ مش هتدفعي وهاتيجي تاني إن شاء الله..

ضحكت وكشفت عن أسنانها فانبهرت وانتصب عضوي واحمر وجهي وارتبكت، وحين رحلت كانت يداي ترتعشان وقلبي ينبض، في تلك الليلة، وفي الجهة المقابلة للسنترال، اشتركت مع صديق في شراء ربع قرش ودخنَّاه معًا، وجاء آخرون وآخرون، واستمر الحشيش يتوافد بتوافد الرفاق، بينما نضحك ونتشاجر ونغني بصخب، وعدت لأنام راضيًا منتعشًا وسعيدًا..

مضت أيام عديدة وأنا أنتظر مهمة أخرى يكلفني بها الشيخ، ولم يكن شيء يشغلني سوى رؤيتها اليومية، وكلما جاءت أتمسك بألا تدفع شيئًا، وبالأيام صارت تتعامل معي بلطف شديد، حتى أنها سألتني عن اسمي، وتبرعت بقول: "هند".. دون أن أسألها!! عشت أيامي الجميلة في انتظارها، وراودتني أحلام جنسية طوال الوقت، واستمتعت بها، بل طاردتها، حتى حين نصحني أصدقائي العاملين في محال مجاورة بالابتعاد

عنها، وأجمعوا على أنها تتعمد أن تعطي كلًّا منهم خيالات كي تحصل على خدمات مميزة، و لم ينجح أحدهم في الحصول على شيء منها أكثر من الابتسامة والكلمات اللطيفة، وكان هذا أقصى طموحي فرضيت أن تستغلني، وكنت أعوض العجز الناتج عن مكالماتها الطويلة عن طريق سرقة زبائن آخرين، أو الدفع من جيبي الخاص، وحين كنت أنتظرها في يوم، دخل علي وألقى السلام، فرفعت عيني أتأمله وقد زاد وزنه وامتلأ وجهه وترك لحيته دون تهذيب..

– أؤمر..

– الأمر لله يا حبيب..

– يا عم أنهو هوا وسخ رماك علينا..

– احترم نفسك يالا.. بدال ما ارجّعك الشارع تاني..

حاولت الحفاظ على أعصابي و لم أسبه أو أطرده كي لا أخسر ما أملك الآن، لكني لم أتمكن من تجاوز حقدي وكراهيتي له، فلم أنطق..

– تخلّص ورديتك وتروح للشيخ.. ما تتأخرش ياض..

قالها وهو ينظر في عيني مباشرة معلنًا أنه السيد وأني سوف أطيعه، ورحل...

ثارت أعصابي رغم أني اعتدت الإهانة منذ زمن، إلا أنها تأتي من علي موجعة وغير محتملة؛ لذلك عندما جاءت هند لم أمرح معها كعادتي، بل غضبت عليها فرحلت دون أن تتكلم...

تركت العمل لفاطمة وذهبت لمقابلة الشيخ في المطعم الذي يملكه.

لم يكن شيء غير متوقع أن أذهب لجمع أمواله المبعثرة حول الأرض.. في البدء كنت أسلم وصلا أو فاتورة مقابل المبلغ المدفوع، وكانت تلك المعاملات مفهومة وواضحة؛ فقد كنت أحصِّل إيجار محالٍ أو أراض أو سيارات، لكن وبمرور الوقت أصبحت أحصِّل مبالغ ضخمة ودونَ أن أحمل أي مستند، وأعود أسلم النقود لعلي، وكانت تلك المهام أو المشاوير تتكثف في فترات معينة، كأول الشهر وآخره، إلا أنها دائمًا موجودة، وبصورة عشوائية أتلقَّى اتصالًا يحدد المكان واسم الشخص فقط لا غير، وكل ما عليَّ فعله هو الطيران ذاهبًا إلى العنوان، آخذ ما لا أعرفه، وأعود به إلى علي، الذي يتباطأ دائمًا في إخراج عمولتي كي أسأله عنها، فيشعر بالنصر لمجرد سؤالي، درت حول الأرض أجمع النقود، أعمل أحيانًا في السنترال، وأبيت دائمًا عند عبد المقصود، وأصادف هند أحيانًا، وفي ذلك اليوم حين كنت أنتظرها وجائني علي طردتها وتركت العمل وذهبت للشيخ، فوجدته مضطربًا قلقًا..

– عملت طيب إنك جيت بدري..

– تحت أمرك يا شيخنا..

لا شيء جديد.. العنوان: أبو الغيط.. الاسم: الحاج مصطفى.. إلا أنه أضاف ما أربكني ووترني، فقد أعطاني هاتفًا نقَّالًا لأتصل به، وأعاد لي بطاقتي للمرة الأولى منذ عملت معه قائلًا:

– خلِّيها معاك يمكن تتفتش..

رحلت.. وفي السيارة الأجرة حدثت مشاجرة بلهاء، فتوقف السائق في منتصف الطريق الدائري وأقسم أنه لن يتحرك.. فقررت أن أكلم الشيخ كي يسامحني إن تأخرت، وكل ما دفعني إلى ذلك هو الرغبة في التحدث في هاتفي بينما أدخن سيجارة..

– ألو.. أيوه يا شيخ.. العربية عطلت ع الدائري.. وأنا كده هتأخَّر..

انفجر فيَّ غاضبًا، وبعد وصلة سباب وتوبيخ قال:

– ولا.. ما تجيش بالليل وخرى.. الدنيا عندك لبش، ولو اتقفشت يمين بالله ما يكفيني عمرك، أما تاخد الحاجة كلمني وأنا أقولك تعمل إيه..

ذهلت من توتره الشديد، لكن وبعد طول انتظار تحرك السائق ووصلت، فاستقللت السيارة الأجرة الثانية، وحين أخبرنا السائق بإنهاء الخط نزلت أبحث عن المقهى حيث ينتظرني الحاج مصطفى، وكلما تحركت خطوتين جائني صوت: "مش عايز حشيش؟" "خد يا نجم اقولك.." "عايز أد إيه؟" "خد بس تعال"... وأصوات كثيرة... تجاهلتها جميعًا وانشغلت بالتهرب منهم، حتى اكتشفت أني ضللت الطريق، وأن تلك البناية قد مررت من أمامها خمس مرات على الأقل، فقررت أن أسأل شابًّا يدخن جالسًا القرفصاء، ورافعًا جلبابه إلى ما فوق بطنه..

– تعرفش ألاقي قهوة الحاج مصطفى فين؟

تأملني بطرف عينه، ثم وقف وأمسك كتفي وبدأ في تفتيشي فانتفضت..

– إيدك يابا بدال ما تزعل عليها..

– عايز تقابلِ الحاج هافتشك.. ولو رجعت ف كلامك برضه هافتشك.. ولو قليت أدبك هاشقك نصين..

كان يدخن السيجارة بفمه فقط دون يديه، فقد كان يفتشني بيد، وبالأخرى يمسك سلاح منشار، وحين انتهى سحبني من ذراعي ودق على باب بيت من طابق واحد، فانفتح الباب وإذا به المقهى الذي أبحث عنه، لكنه مستتر داخل البيت..

– يا حاج مصطفى.. حاج مصطفى..

قالها بصوت مبحوح وهو يدخن دون يديه، فيمسك بذراعي ويرفع طرف جلبابه، جاء الحاج، ولم يرحب بي كعادة من آخذ منهم نقود الشيخ..

– انت من طرف خليفة؟

– إن شاء الله يا حاج.

أخرج حقيبة بلاستيكية سوداء من عبائته وأعطاني إياها.. وأضاف:

– قوله إن المصلحة لو ما قُضْيِتْش هانتفله دقنه..

خرجت محتضنًا الحقيبة، ثم خبأتها في ملابسي، لم تكن ضخمة، وعلى ما أظن لا يوجد بها أكثر من ثلاثة بواكي، اضطررت لأن أتسلق المنحدر كي أصعد إلى الطريق الدائري من نفس موقعي كي لا أعرض نفسي لمخاطر السرقة، ففي مكان مثل هذا أعرف أن حياتي لا تساوي مائة جنيه..

تسلقت الأحجار ثم قفزت من فوق السور، لأجد "البوكس" أمامي وكأنه ينتظرني..

لم يسألني الأمين عن بطاقة، و لم ينطق كلمة واحدة، ودفعني لأركب "البوكس" برفقة مجموعة من الشباب، وانتظرنا طويلًا حتى رأينا وجه الأمين مرة أخرى يتطلع فينا بهدوء وقال: "بطايقكوا"..

وكل من أخرج بطاقة فتشه أحد المخبرين ورحل، وحين جاء دوري أخرج المخبر الكيس وفتحه.. نظرة منبهرة، ثم "اقفلي على جمب".

انتهى الأمر و لم يبق سواي وشابين، أحدهما بلا بطاقة ويحمل خمس أو ست علامات في وجهه، والآخر نظر للأمين شذرًا، انتظرنا حتى انتصف الليل، وكلما حاولت شرح موقفي أشار بيديه أن أصمت، طلبت إجراء مكالمة: "يا باشا أنا شغّال عند راجل محترم اسمه الشيخ خليفة وبوصّله الفلوس دي.. طب يا باشا أكلمه وادّيهولك".. و لم يستجب لأي من محاولاتي، حتى جاء الضابط في سيارة الأتاري معه أميني شرطة آخرين، فتحرك البوكس بالشابين الآخرين، بينما ركبت الأتاري بين الأمينين وأمامي السائق والضابط، حاولت التكلم فاستقر كف مهول على جبهتي فصمتُّ، لم أهتم في تلك اللحظة البغيضة بنقود الشيخ أو مكانها، و لم أكن أفكر بأي شيء سوى ذكريات الحجز الرهيبة، وتتابعت في خيالي الرؤى المقبضة، وإحساس الألم عاودني، كأن الجراح لم تندمل، تتابعت في خيالي الرؤى، حتى تذكرت كلمات الضابط للأستاذ سعيد: "سلملي ع الشيخ خليفة"، وتفاخر الأستاذ سعيد وقتها أنه يعرف الشيخ، لم يستغرق الطريق زمنًا، وحين اجتزنا البوابة وجائني الكف الأول من الأمين، صرخت: "يا باشا أنا عبد المأمور، هات الحاجة

دي أجيبها، ودِّي الحاجة دي أودِّيها، ويمين بالله ما اعرف اللي جوه الكيس ده إيه"..

تجاهلوني زمنًا، حتى رأيت الضابط فرجوته أن أسترد هاتفي النقال لثوانٍ كي أجري مكالمة..

– هاتكلم المحامي بتاعك؟ قال ضاحكًا

– لا يا باشا هاكلم الشيخ خليـ...

– انت هاتصدعني.. اتكلم واخلص..

استقبلني الشيخ بسيل من السباب والتوبيخ، حتى تصورت أنه سيتركني لهم من فرط غضبه إلا أنه قال أخيرًا:

– ادِّيني الضابط اللي عندك..

وبعد مكالمة قصيرة مبهمة أعاد لي الضابط الهاتف، فعاود الشيخ الاتصال، وما إن رددت صرخ في وجهي: "ادِّيني الزفت"..

فمددت يدي بالهاتف إلى الضابط، الذي تململ قليلًا، ثم أخذ الهاتف:

– لا ياحاج ما ينفعش.. لأ والله لازم ع الأقل حد ييجي يضمنه.. عماد باشا على راسي طبعًا بس حد يشرفنا هنا.. من عيني يا حاج.. مع السلامة.

أخذ الضابط الهاتف وأعاده إلى الحقيبة التي تحتوي النقود وبطاقتي، و لم يوجه لي كلمة، فبقيت أنتظر ثلاث ساعات أو أكثر جالسًا القرفصاء

وأتسلى بمشاهدة المجرمين والعاهرات، حتى جاء علي وجلس أمام الضابط..

– هي الفلوس بقت حرز يا باشا؟

لم يرد الضابط عليه ولم يعره انتباهًا، وأصر أن يحولني إلى القسم الذي أتبعه ليتأكدوا هناك من عدم رغبتهم في وجودي، وبحديث ودي وضمان كلمة شرف وافق الضابط على أن أذهب للقسم في اليوم التالي، وخرجت برفقة علي مندهشًا، كانت سيارة الشيخ في انتظارنا، ركب علي، ووقفت أنتظر حتى أشار لي أيمن – السائق – بأن أركب، وبدأ الحديث..

– إيه يابا.. انت وقعت ولا الهوا اللي رماك؟

تلك اللحظة فقط تذكرت النقود؛ فارتعدت وانتفضت، وقبل أن أنطق أخرج على الحقيبة السوداء وبدأ يعد، فهدأت واستسلمت للنوم..

استيقظت حين توقفت السيارة، فنظرت من حولي ورأيت شيئًا لا أفهمه.. هدوء مطلق، وأرضية إسفلتية نظيفة، رصيف يلمع، مكان لم أر مثله رغم تجوالي حول القاهرة في الأيام الأخيرة، إلا أن هذا البناء الشاهق والهدوء والأشجار والسيارات الفخمة... كل تلك الأشياء في مكان واحد دون أي معكرات أو مشوهات لاكتمال الصورة، كان مشهدًا مهيبًا ومبهرًا، نزلنا من السيارة، ورحل أيمن، تكلم علي مع الشيخ، ولم أسمع سوى كلمتي: "ألو.. أيوه يا شيخ"..

انتهت المكالمة، وصعدنا أنا وعلي في المصعد، وكان يتأملني بطرف عينه ساخرًا، فقررت أن أستدرجه لشجار..

– لسه بتروح لتهاني؟

ظهر الضيق على وجهه ولم يرد، فشعرت بالنصر وقررت الاستمرار..

– إيه.. مكسوف ليه دى....

قبل أن أكمل كان قد أمسك رقبتي بيد، ورفع سبابة الأخرى في وجهي..

– قسمًا بالله كمان كلمة واقتلك..

افلتُّ من قبضته ووجهت لكمة إلى وجهه حاول يتفاداها فاستقرت على أذنه، وقام سريعًا لينطحني برأسه، فقابلته برأسي في أنفه وسال الدم منها، كان المصعد قد توقف، وفتح أحدهم الباب علينا، فرأيت الشيخ واقفًا في جلبابه الأبيض حافي القدمين فوقفت، وأمسك علي برقبتي، لكن الشيخ صرخ به فتوقف..

دخلنا إلى بهو فسيح، به ما يزيد عن عشرين "شلتة" مزركشة ومنسقة بعناية، وسجاد ملون استمتعت بالخطو فوقه، جلس الشيخ وعلي في أقصى ركن، بينما وقفت جوار الباب، استرقت السمع ولم أسمع شيئًا، لكني لم أعتني بهما، ودفعني شيء ما لاستكشاف باقي القصر، فتسللت إلى الداخل، ووجدت إلى يميني ممر يؤدي إلى مكان ما، فدخلت.. لكني رأيت شيئًا بهرني، فقد رأيت سيقانًا ممتلئة بيضاء تركض هربًا حين رأتني، رجعت مكاني كي لا أورط نفسي في رؤية قد يقتلني الشيخ بسببها، ووقفت أحاول التفكير في مخرج حين يبلغ الشيخ تلصصي على حريمه، لكن المشهد يعود يحتل خيالي، فأرتعد نشوة، وأتمنى لو أتمكن من الركض خلفها..

أشار لي الشيخ بعد مدة، فوقفت أمامه، فقال:

- بص يالا.. انت بكرة الصبح تروح القسم تشوف طلباتهم هناك وتجيلي على هنا تبلغني..

لم يوبخني، و لم يثُر، فقررت أن أستوضح وضعي..

- طب يا شيخ أفتح السنترال ولا لأ؟

- لأ.

صدمتني الإجابة المقتضبة، وقبل أن أندهش أمسكني علي من كتفي وأدار وجهي تجاه الباب..

- برًا يالا..

حاولت رد الإهانة فأشار الشيخ تجاه الباب فخرجت.. ودارت برأسي عدة تساؤلات واحتمالات، لكن ما بدا لي يقينًا وقتها هو أني فقدت عملي، وقفت أتأمل البناية من أسفل وأنظر حولي، فأدركت أني لا أعرف مخرجًا من هذا المكان، فقصدت الغفير النوبي الذي وصف لي الطريق، فتلكأت في الطريق، وكنت أقلب الأفكار في رأسي، حتى تأكدت من بعض الحقائق.. أن الشيخ يريدني أن أذهب إلى القسم حفاظا على وعد علي ومن بعده ستنتهي علاقتي به، وحينها افقد عملي ومصدر رزقي ومأواي.. مرت سيارة الشيخ جواري وبداخلها أيمن وعلي، أخرج أيمن ذراعه للتحية، فركضت خلف السيارة، فتوقف.. فقلت: "عايزك ضروري"..

كان أيمن يتعامل مع علي الند للند فقال:

– اركب.. هنوصّل علي ونتكلم..

لم أكن أعرفه، وكان هذا لقائي الثاني به، واللقاءان في نفس اليوم، لكني كنت بحاجة لاستشارة.. هل أذهب للقسم ومن بعدها إلى الشارع، أم أتلكأ وأعرِّض نفسي لغضب الشرطة؟ وكيف أخرج بأقل الخسائر من هذا الموقف؟ كان علي يجلس في الخلف يغطي أنفه بمنديل عليه بقع حمراء، فنظرت إليه في مرآة السيارة وضحكت..

– انت غلبان أوي يا غالي.. أنا لو عايز أءذيك هدوسك زي الصرصار..

فغمزت له بعيني وأمسكت أنفي..

– ولو ع الضرب هاضربك وانت عارف..

تدخل أيمن فوقف كلانا عن الكلام، حتى وصلنا عند بناية من عشرة طوابق أو أكثر بين بنايات أقزام، في منطقة مختلطة، فيسارها عشوائيات ويمينها مساكن حكومية، وبعض الأبراج الشاهقة حديثة البناء، نزل علي ودخل البناية، فقال أيمن:

– في إيه؟

– بص.. انت ما تعرفنيش صحيح بس أنا مرتاحلك...

قصصت عليه القصة كلها منذ ذهبت إلى أبو الغيط حتى قابلته في الطريق، فصدق على رأيي وقال:

– الشيخ مالوش عزيز..

– طب والعمل؟

– انت بقالك كتير شغال معاه؟

– آه.. في السنترال من زمان.

– شغال معاااااااااه من زمان؟

– لأ.

– بص.. أنا هاقولك نصيحة لوجه الله.. الراجل ده حرام حتى تقول عليه شيخ، لو تعرف تخلع منه انت الكسبان، إنما لو زي ما انت بتقول كده ومالكش شغلانة ولا متوى، يبقى لازم تمسك حاجة عليه عشان ما يرميكش..

– طب أمسك عليه إيه؟ أنا باروح آخد حاجة وامشي، ولا اعرف حتى دي فلوس إيه..

– دي سمسرة، يخلص لواحد قضية عن طريق ضابط يعرفه، يعدي لواحد ترخيص ولا ورقة وخمسين حوار.. انت بس تعرف ده مين وإيه اللي عايزه من الشيخ، وخد فيها كام وتبقى قفشته..

– طب ما لو الشيخ واصل أوي كده وبيطلّع الناس من قضاياهم وحوارتهم، يبقى أنا ما اعرفش أعمل معاه حاجة..

– واصل إيه يالا!! ده معفن وشغلانته دي أي حد يشتغلها، كل اللي لازمك تعرف مين اللي بيقبضوا، ودي مش حوار؛ عشان كله بيقبض،

وتعرف مين اللي عايز يدفع ويخلع من حوار، ودول هما اللي هايدوروا عليك، بس هو عمل مشاكل كتير ودخل في حاجات كبيرة عليه، عشان كده بقا مشغّلك انت وعلي تجيبوا وتودوا الفلوس، والحكومه مستنياله غلطة، امسكها انت عليه هيعيّشك ملك

– انت جبت الكلام ده منين؟

– أنا شغال معاه من أيام ما كنت عيل، وكان لسه غشيم ومصارينه كلها معايا.. ما يغركش إني سواق، أنا بقفش منه اللي أنا عايزه، وهو مش عايز غير إني أفضل قدامه.

بدأ أيمن يقص لي أحداثًا شاهدها بعينيه، حتى أخافني كلامه وشعرت بخطر أكبر، فقد أكون كبش فداء لشخص آخر في مقابل مبلغ يقبضه الشيخ، وبهذا أكون وقعت في أكبر كارثة منذ ميلادي، تحولت أنا وأيمن كثيرًا، وتبادلنا الحديث حول كل شيء، كان أبيض ممتلئ الوجه وسيمًا، لكنه حليق بلا لحية، على عكس كل المقربين من الشيخ كعلي، فتذكرته، وسألت:

– وعلي ده إيه حكايته؟

– انت هاتصيع؟ ما انت عارفه أحسن مني..

– أنا عارفه أما كنا عيال، كان جاري وزميلي في المدرسة.

وبعض أن قص عن علي أدركت أنه الوسيط بين المجرمين وتجار المخدرات والشيخ، حيث تبقى اتصالات الشيخ ومعارفه مع الأشخاص الذين لا تمسهم الشبهات، وأنه لذلك يعتبر ذراع الشيخ اليمنى، ولهذا أيضًا أعطاه بيتًا وفرشه وأنفق على زواجه و..

- هو علي متجوز؟!!

- آه.. بت صفرا كده اسمها تهاني ما اعرفش اتجوزها ليه..

اندهشت للاسم، وحين وصفتها له أكد انها هي تهاني بعينها، فضحكت وفهمت سبب غضبه في المصعد، ورويت له كل ما أعرفه، وضحكنا كثيرًا حتى أشرقت الشمس علينا، فودعته وبيننا اتفاق على أن نتقابل ثانية، وسألته سؤالًا أخيرًا:

- أروح القسم ولا لأ؟

- روح شوفهم عايزين إيه، ولو حسيت بغدر لبِّس الشيخ أي حكاية.. مخدرات، متستر على مجرمين، دعارة، إخوان... اللي ييجي على بالك.. ساعتها هايدور هو عليك.

ذهبت إلى النوم، وكان عبد المقصود يعد الشاي فجلست معه، تحدثنا في أمور عدة، ولاحظ الكدر على وجهي، فقال:

- شايل الهم انت..

- شكلي هاتحبس يا ابو عمُّو..

- حكومة؟

- أمَّال إيه اللي هايحبسني يا جدع انت.. فوق بأه..

- شوف.. الحجز مرار، والراجل الحر مايسلِّمش

- أعمل أنا إيه يعني؟

- شوفلك مطرح اتاوى فيه.

- وأعيش أنا ازاي والحكومة بتدوَّر عليَّ؟

- لا بتدوَّر ولا حاجة.. ما تعيش زي العبد لله.

- انت هربان يا عبد المقصود؟ عليك حكم؟

لم يجب على أسئلتي، وتأكدت من أنه شعر بالندم على تصريحاته الأخيرة، حين ترك الشاي ورحل، فرحلت بدوري إلى القسم..

منذ أن وصلت تذكرت ما حدث بالداخل، وبدأت أفكر في الهروب، وأخذت أتقدم ببطء حتى وصلت إلى البوابة، وتجاوزت المخبر بصعوبة، ودخلت قابلت الأمين الذي رأيته حين كنت محجوزًا لديهم، وتذكرت سؤاله: "انت سوابق يالا؟"

عاملني ببرود، و لم يهتم بما أقول، بل لم يهتم حتى بوجودي، فانتظرت ظهور الضابط، وأشار لي فتقدمت..

- أنا اللي شغال مع الشيخ خليفة يا باشا..

تأملني قليلًا وأشار بأصبعه للحجز..

- شايف الزنزانة اللي هناك دي؟ روح استنى هناك..

- يا باشا أنا خدامك.. أي حاجة بس متدخلنيش الحجز..

تأملني بهدوء و لم ينطق، فشعرت بأني أسقط، وتذكرت نصيحة أيمن..

– الشيخ خليفة يا باشا شغال مع تجار مخدرات..

لم يرد و لم يرفع عينه حتى، فبقيت صامتًا مدة طويلة، قام فانتظرته بالخارج أمام غرفته، وعاد بعد فترة وأشار لي بالدخول..

– انت اللي اتمسكت في أبو الغيط امبارح؟

– أيوة يا باشا.

– طب إيه رأيك إن الحرز كان معاك إنت، وإنك شايلها شايلها!!

صعقت و لم أنطق، ارتعدت و لم أقدر على التركيز، لحظات كنت أرى فم الضابط يتحرك ولا أسمع أصوات، ثم بدأت أسمع لكني لم أفهم شيئًا مما يقوله، أفقت على صوت صرخته في أذني..

– شغَّال مع الشيخ ولَّا معايا؟

– معاك يا باشا..

– بالسهل كده؟

– يا باشا اللي انت عايزه

– تِقِب وتغطس وتقولي حاجة أنا معرفهاش عنه.

أخذت أفكر، وكلما نطقت بشيء مما قاله أيمن أسكتني وطلب شيئًا آخر، حتى تذكرت عبد المقصود...

– يا باشا الشيخ متستر على مجرم هربان.

– فين؟

وقتها فقط بدأ يهتم بما أقول..

أبلغته بكل ما أعرف عن عم عبد المقصود، لكني لا أعرف جريمته أو مما يهرب؛ فادَّعيت أنه قاتل، فأشعلت حماس الضابط، انتظرت نصف ساعة تقريبًا جالسًا القرفصاء بينما يتحدث الضابط في الهاتف ويخرج ويجيء، حتى افتتح محضرًا واستجوبوني مرارًا.. لم أجد مبررًا لإبلاغي عن عبد المقصود وقتها، فقد أدركت أن ما قاله الضابط حول القضية والحرز كان فقط لإرهابي، وأن الشيخ لم يجهزني ككبش فداء، وأني كنت سأخرج دون حتى استجواب، لكن الرعب الذي احتلني حين أشار بأصبعه للحجز هو الذي دفعني لذلك، تتابعت أسئلته وتكررت إجاباتي، ولم أجرؤ على تغيير ما بدأت به كلامي؛ فأكدت أن عبد المقصود قاتل هارب، انتهى التحقيق وجاء رجلان في زي مدني أخذا التعليمات من الضابط ورحلا، بقيت أنتظر لمدة ساعة تقريبًا حتى دخل أمين الشرطة..

– أيوه يا افندم طلع عليه حكم وهربان وجبناه هنا..

لم أكن أدري هل أفرح لنجاتي من بطش الحكومة إن كانت معلوماتي خاطئة، أم أحزن لفقدان عم عبد المقصود دون حتى مقابل، فتملكتني رغبة في النوم، وفقدت التركيز دقائق، وأفاقني صوت الضابط:

– انت شغال مع خليفة؟

– أيوه يا باشا.

– لأ.. انت شغال معايا أنا

– خدَّامك يا باشا.

كانت تعليماته واضحة وبسيطة، وهي أن أبلغه بكل ما أراه أو أعرفه أو أسمعه بخصوص الشيخ وأصدقائه وأعماله، ترنحت حتى السنترال فوجدت علي عند الباب..

– فين عبد المقصود؟

– وأنا إيه اللي يعرفني؟ أنا جاي أهه من القسم.

لم يكن هناك سبب ولو تافه هذه المرة، لكنني اضطررت لرد اللكمات بلكمات دفاعًا عن نفسي، و لم أدرك كيف انقلب الوضع بهذه السرعة، فصرت أنا تحت ركبتيه بينما يمسك طرف جلبابه الأبيض بأسنانه – فيغطي به لحيته ويكشف دون قصد عن عورته، أمسك يديه كي لا يسحق وجهي، يحاول التخلص من يدي ولا ينجح، فيضغط بركبتيه على صدري، ولا أعرف كم من الوقت استمر الشجار، لكن المارة تجمعوا ورفعوه من فوقي، فاستندت إلى ذراع أحدهم، وبينما أقوم رأيت على وجهه علامات السعادة والانتصار...

– من النهارده ما اشوفش وشك هنا..

– أنا مش شغال عندك عشان تطردني.

دار بيننا الحوار العقيم، وانتهى دون نتيجة، ورحل هو، فذهبت أنا لمدخل العمارة و لم أجد عبد المقصود، فجلست أتحسر على صديقي الصعيدي الهزيل ولا أشعر بالندم عليه في أعماق نفسي، فقد كنت

أدافع عن نفسي، وعلى حسب قوله: "السجن مرار"، لكن ما يفزعني ويكدرني هو أني لم أكن في خطر، و لم أكن لأدخل السجن ولو لساعة، أثناء التحقيق سألني الضابط خمس أو ست مرات لم كنت أحاول الهرب من فوق الدائري إن لم أكن أحمل سوى نقود؟ كما سألني مئات المرات ماذا كنت أحمل غير النقود؟ فأيقنت أن لا حرز لديهم، وبالتالي لم أكن كبش فداء لأحد، لكني كنت قد أبلغت عن عبد المقصود وانتهى الأمر.

بقيت لدي الآن أزمة وحيدة أفكر بها، وهي كيف أكسب ثقة الشيخ مرة أخرى كي أتمكن من مساعدة الحكومة؟ فهو بلا شك من أصدر التعليمات لعلي بطردي، فهل أرحل إلى الشارع من جديد؟ وأعيد كل ما مررت به، وقد أضطر لأن أعمل مع "الفواعلية" من جديد، أو أتصيد الطلبة في الشوارع المهجورة، ووقتها سيصبح الحجز شيئًا متوقعًا قد يأتي بين لحظة والأخرى.. لا سبيل سوى إرضاء الشيخ.

تذكرت أيمن سائقه، هو حتمًا يعرف مكانه، أجريت الاتصال وبعد الأسئلة العقيمة أخبرني بأن الشيخ لم يخرج من بيته بعد، ووصف لي كيف أذهب إلى هناك..

عدت إلى الشارع المبهر الهادئ، والبناية العملاقة، والأشجار النظيفة، توقف المصعد، ودققت الجرس، وبعد مدة طويلة فتحت لي الباب فتاة في الثامنة عشر أو أكبر قليلا، بيضاء.. ممتلئة.. سافرة الوجه والشعر.. ترتدي قميص نوم بلا أكمام، ويغطي شعرها الأسود الغزير كتفيها، توارت خلف الباب حين رأتني، فنظرت إليها كما أنظر لهند.. "بتبجح حسب نصيحة أحد أصدقائي، فهي إما تبتسم وترضى أو تعبس، لكن لا تثور"...

– الشيخ خليفة هنا؟

أغلقت الباب في وجهي وصرخت بصوت عالٍ: "يا بابا"، ذهلت لأن تلك "البطة" ابنة ذلك الشيخ، انتظرت طويلاً حتى فتح الباب من جديد، ووجدت الشيخ بنفسه أمامي، أدخلني وجلست جواره في نفس البهو ذي "الشِّلت"، وبدأت:

– أنا رُحت القسم زي ما قولتلي..

– أنا عارف.. مش قابلت علي وقالك ما اشوفش وشك تاني؟ جاي تشتكي؟

– لا يا شيخ.. أنا عارف إن علي دراعك.. وأكيد اللي قاله جاي منك.. بس لجل العيش والملح والخير اللي شوفته منك جاي اقولك تاخد حذرك..

– جبت التايهة انت كده؟ قوم ياض روِّح مش عايز وجع راس..

– الضابط كان عايزني أراقبك..

– يالا انت فاكرني عيِّل؟ ولا فاكر إني معرفش الكلام ده؟

– أنا بس بعمل بأصلي.

– متشكرين يا أصيل.. ورِّينا عرض كتافك..

– طب ما الحكومة هاتدور على غيري، وممكن ما تاخدش بالك مين هو، أنا راجلك في الأول والآخر..

كان الشيخ يرتدي جلبابًا مفتوحًا يكشف عن شعر صدره الكثيف، وقطرات العرق تمر من جبهته إلى رقبته، مسح قطرات العراق وقال:

– استنى زي ما انت كده..

اتجه إلى آخر البهو، حيث كان أمامه باب مغطى بمرآة، فتحه ومر من خلاله، انتظرت طويلًا، فأخذت أتأمل محتويات المكان، كنت أجلس في صدر البهو الواسع على شلتة، ويحيط بي عدد مهول من الشلت، مغطاة بنسيج ناعم وملون، وبعض منها له مسند رأس كالوسادة ومسندين للأذرع، وبعد مجموعة الشلت يوجد صالون ضخم مكون من اثني عشر مقعد وكنبة، تتدلى من فوقه خمس نجفات زجاجية تعكس ضوء النهار المتسلل من خلف الشبابيك التي تداريها الستائر فتضيء المكان بألوان عديدة خافتة، ثم توجد ثلاث مرايا لها مقابض ذهبية، هي بلا شك ثلاثة أبواب لعالم آخر بالداخل، عاد الشيخ وشغّل مكيف الهواء وجلس في مكانه السابق، وقال:

– بص.. الحكومة لو عايزة تراقبني مش هتتزنقلك، انت بس تلاقيهم قالوا ما يضرش.. أنا هاسيبك شغّال عندي، وتقولهم اللي أنا عايز أقوله..

لم أفهم تمامًا.. إن لم أكن مصدرًا مهمًّا لديهم، فلمَ سيصدقون معلوماتي المغلوطة؟ – إن كان هذا ما قصده الشيخ، فسألت.. فبدا وكأنه هو نفسه لا يفهم، وثار وأمرني بالرحيل، وقال إنه سيبلغني المعلومات بوقتها..

في نفس الليلة افتقدت عبد المقصود، وخرجت أبحث عن صديق أدخن معه جوان، وجدت الكثير من الأصدقاء ولم نجد جوان، فوقفنا

ندخن سجائرنا القانونية بينما نتكلم، توقفت أمامنا سيارة ميكروباص وخرج منها ثلاثة رجال في زي مدني، وبعد مشاهدة بطاقاتنا وتفتيشنا اقتادوا أربعة معي إلى السيارة ورحلنا، وفي السيارة لم يسأل أحدنا سؤالًا إلا وكانت إجابته صفعة أو "كشاف".. فالتزمنا الصمت...

حين وصلنا لم أر الضابط الذي أعرفه، فأثرت جلبة كي لا أدخل الحجز، وأخبرتهم بأني أعمل مع الضابط الذي يتولى وردية الصباح، ولم يتأخر الضابط واجرى اتصالًا هاتفيًا بالآخر، وعلمت لأول مرة أن اسمه "محمد بيه"، ولم يتعرف على هويتي رغم إصراري على أني أعمل معه، فقلت له إني من أبلغ عن الصعيدي وتذكرني، أفرج الضابط عنا جميعًا لعدم وجود أي تهمة من الأساس، لكن قبل أن أرحل أخبرني بأن أعود عند الظهر لأقابل محمد بيه.

تجاوزت المخبر بسهولة؛ فقد اعتاد وجهي، دخلت على محمد بيه، ودون أن ينظر إلي:

- رُحْت قلت للشيخ ولا لسه؟

لم أعد أفهم لماذا يريد كلاهما استخدامي ضد الآخر، وكلاهما لا يثق بي على الإطلاق؟

- أروحله ليه يا باشا؟

انفعل قليلًا وامسك ذقني بسبابة وإبهام يده اليمنى، تفحَّصني واقترب من وجهي حتى رأيت الشعيرات الدموية داخل عينيه، ثم دفع برأسي للخلف وأخرج حقيبة بلاستيكية سوداء من درج مكتبه، وأخرج منها حشيشًا وبرشامًا بكميات كبيرة، بالإضافة إلى مطواة ونصل سكين..

– امسك الكيس ده يالا.

– ليه بس يا بيه؟

أثار الرعب في نفسي بصوته فأمسكت الكيس..

– دي تهمة أدخَّلَك بيها السجن وما تشوفش النور تاني، ده غير إن صاحبك الصعيدي غضبان أوي في الحجز، تدخله جوه ولّا تمضي ع المحضر؟

– محضر إيه يا بيه؟

– المحضر اللي اعترفت فيه إن دي حاجتك..

ألقيت الكيس وصرخت:

– دي مش حاجتي يا باشا.. وهي المشرحة ناقصة قتلة؟

نادى بصوت هادئ فجاء الأمين..

– خد الواد ده نزله الحجز وهاتهولي هنا ع الإمضا..

أمسك الأمين بي وسحبني من ذراعي، فتذكرت الحجز، لم أرتعب من ذكراه هذه المرة، فقد كان يخيفني أكثر رؤية وجه الرجل الذي اعتبرته صديقي لزمن، ودمرت حياته دون أي سبب..

– هامضي يا بيه.

– اسم الله عليك.. أصلك هاتمضي كده أو كده؛ فملهاش لازمة الإهانة، ولّا إيه؟

– تمام يا بيه

بعد الإمضاء كان كلامه مفهومًا، فهو يعلم أني قد ذهبت للشيخ، وهو يريد حقًّا مراقبته، وهو الآن ضمن ولائي، فإن تحركت خطوة واحدة خاطئة سيخرج الحرز والمحضر من الدرج، ولو بقيت وفيًّا أضمن النجاة..

– يا بيه ما الشيخ عارف إني معاكوا..

– وهايسيبك تشتغل معاه عشان لو جاب غيرك هاجنِّده برضه.

خرجت متحيرًا ولا أفهم لمن أنتمي الآن؟ من آخذ منه ثمن الطعام والمأوى، أم من يمنحني حرية التحرك ويقيني من التعذيب، تخبطت أيامًا قليلة بين السنترال والقسم والمقهى – حيث أقابل علي، وكانت بعض الأشياء قد تغيرت؛ فرفاق الشارع يعرفون أني من أبلغ عن عبد المقصود، فتجنبني بعضهم، وتملقني آخرون؛ فاستمتعت بذلك الإحساس، بينما صار علي يتلذذ بالسخرية مني وإضحاك عصبته على المقهى كلما رآني، ولكن كثرة عددهم منعتني من الاشتباك معه، لم يكن الشيخ يكلفني إلا بأشياء بسيطة، مثل تحصيل شيك أو إيجار، حتى طلب مني أن أذهب إلى الزمالك وأجلس في مطعم إفرنجي محدد، وأنتظر باقي التعليمات، وأعطاني كعادته في المهام الثقيلة هاتفًا نقالًا، انتظرت قليلًا أمام المطعم علّه يبلغني تعليمات مختلفة فيقيني من الإحراج، لكنه لم يتصل، فاضطررت لأن أدخل المطعم، ورأيت تلك الأوجه البيضاء اللامعة، والطعام المقزِّز الملوَّن، والسيقان والصدور، وتهت تمامًا حين سألني شاب أنيق أسمر طويل الشعر بمنتهى الذوق – وكنت قد توقعت غير ذلك؛ إذا كنت قد حجزت من قبل أم لا، فأجبت نافيًا؛ فأخبرني بضرورة أن أحجز مسبقًا،

ورحل معتذرًا، فقررت أن أنظر مرة أخرى إلى السيقان والصدور والأكتاف الملونة المعروضة أمامي، فاندهشت حين رأيت الشيخ خليفة يجلس على منضدة معزولة تمامًا في أقصى ركن في المطعم، لم أعرفه في القميص والبنطلون، لكنني لا أتوه عن لحيته، فتقدمت إليه مباشرة...

– سلامو عليكو..

التفت إليَّ باسمًا، ثم افتعل المفاجأة..

– أهلًا.. ازيَّك يا غالي.. اقعد...

جلست.. وعرفني بالرجل المهيب ذي الشعر الأبيض والصحة الموفورة والساعة الذهبية الجالس أمامه..

– عماد باشا.

فسلمت عليه رغم عدم اهتمامه بي، وعدت أتأمَّل المكان، فجاء النادل، فسألني الشيخ إن كنت قد أكلت..

– آه.. والله لسه واكل من عشر دقايق كده يا دوبك..

فطلب منه حاجة ساقعة، وعاد يستأنف طعامه، ولم يكن عماد باشا يتوقف للحظة عن التهام طعامه مستخدمًا الشوكة والسكين بحرفية مبهرة وسرعة مذهلة، وحين انتهى من الطعام أشار للنادل فجاء مهرولًا..

– الشيك لو سمحت..

أول جملة أسمعها منه.. وأدركت خشونة صوته وهدوئه المزعج، وأصر الشيخ على ألا يدفع مليمًا، فأعاد رزمة المئات إلى جيبه وسلم على الشيخ..

– على اتفاقنا يا خليفة.

لم أكن قد انتهيت من علبة "الحاجة الساقعة" حين أخرج الشيخ ورقتين من فئة المائة جنيه، وورقة من فئة الخمسين ووضعهم في الحافظة السوداء وقام، فتبعته مندهشًا أتساءل: "مائتين وخمسون جنيهًا!!! ماذا يا ترى أاكلوا؟!" تبعت الشيخ حتى السيارة، وركب الشيخ بجوار أيمن حتى وصلنا إلى بيته، فنزل وانحنى على نافذتي، ففتحت الباب لأخرج مدَّعيًا الأدب، فمنعني وقال:

– لو شفت حد من أصحابك أو طلبوك قلهم على اللي شفته..

لم أكن قد رأيت شيئًا، ولا أعرف من يكون عماد باشا، أي إني لا أملك معلومة أقولها، فحاولت أن أستوضح..

– اللي انت شفته لا تزود ولا تنقَّص، وخلِّي بالك.. لو كدبت في كلمة هايهرشوك.. والتليفون اللي في جيبك تحية مني..

وصعد الأربع درجات الرخامية المؤدية إلى أبواب المصاعد اللامعة..

في الصباح قررت أن أذهب إلى "محمد بيه" وأبلغه بما حدث، وحين انتهيت من آخر جملة، وهي طلب الشيخ إخباره وإهداؤه الهاتف لي، أخذ محمد بيه يستزيد من وصف الرجل، ثم أمرني بالانصراف، خرجت مطمئنًا؛ فكلاهما يعرف أني مزدوج الانتماء، وكلاهما يسهِّل مهمتي مع الآخر..

كنت أبيت مكان عبد المقصود، وأقف في السنترال، إن لم يطلبني أحد، إلا أني منذ ذلك الصباح قررت ألا أعمل في السنترال، واعتمدت

من وقتها على ما آخذه من الشيخ، وإن أنفقت ما معي دون أن يطلبني في مهمة جديدة، أنفقت بحذر شديد من مائتي جنيه أدخرها، وفكرت في أن أستفيد بوساطة محمد بيه في أن أعود لبيتي القديم، فهو بلا شك قادر على إرهاب "سيد جبنة" وكل الرعاع أصدقائه، وبعد حوار مقتضب وروتيني مع البيه..

– هو أنا كان ليا طلب يا باشا..

– اطلب.

فرويت له قصتي، وكيف صرت بلا مأوى رغم كوني من أصحاب الأملاك.. فبدا على وجهه أنه يقاوم الضحك، وقال بصوت هادئ:

– انت يا ابني شغال مع كنز، طلّع منه مصالح وانت تسكن في قصر.. انت تعرف علي؟

– آه يا بيه.. ده عِشرة..

– الواد ده كان صبي في القهوة بتاعته، دلوقتي ذراعه اليمين، وجايبله شقة ومجوِّزه..

– وهو يآمنلي ازاي وأنا شغال معاكو؟

– يا مغفل.. ما انت لما تبقى شغال معانا يخاف منك.. صح؟!.. بس.. يبقى لازم يراضيك...

بدأت أيام مختلفة بعد أن أنهيت مقابلتي مع محمد بيه؛ فقد حددت هدفي، وهو تصيد خطأ للشيخ خليفة والاحتفاظ به لنفسي كي أبتز

منه ما أريد، وكان كثيرًا ما يطلب مني أعمالًا اعتيادية، كجمع الإيجار من محاله أو تحصيل فواتير وشيكات، ونادرًا ما ذهبت لتحصيل أموال دون مستند، وكنت أدخر العشرات ثم المئات، كما أقتطع لنفسي شيئًا من النقود التي أوصلها، وتوطدت علاقتي بـ"محمد بيه" حتى كنت أدخل القسم دون استئذان أو ميعاد سابق، وأصافح البيه يدًا بيد، وقد نتحدث في أمور خارج إطار العمل، وبسبب السيولة المتوفرة، والهاتف النقال، توطدت علاقتي بهند، واكتشفت إحساسًا جديدًا خرافيًّا يملأني بالنشوة، وكلما اختلينا ولمستها شعرت بالقشعريرة، وسرت في جسدي رغبة محمومة تطلب المزيد، حتى صارت رؤية هند اليومية هي إحدى أهم القواعد في حياتي، وصارت صورة ضحكتها تملأ خيالي طوال الوقت، وترددت على بيت الشيخ مرات لآخذ منه التقرير الذي يود أن يصل للحكومة، وفي أثناء ذلك كنت ألمح لفتة أو ضفيرة أو ذيل فستان من "البطة" ابنته.

كنت أجمع معلومات حول من يرسلني الشيخ إليهم، كانوا بائعين، معلمين، أطباء، وأصحاب أملاك، إلا أن الشيخ توقف عن إرسالي إلى المشبوهين، كنت آخذ التعليمات من الشيخ بالهاتف، وأعود إلى المقهى حيث يجلس علي ورفاقه، فأتحمل سخريته قليلًا كي آخذ أجري.. قضيت أيامًا ممتعة برفقة الهاتف وهند وتدخين الحشيش مع الأصدقاء — الذين يعرفون صلتي بالحكومة فيعاملونني باحترام فائق، لم يكن يزعجني سوى تفوق علي عليَّ، وحين كنت أسلمه النقود في المقهى، ولم يكن رفاقه قد توقفوا عن الضحك بعد، رن هاتفه فأشار لهم بأن يهدأوا

— أيوه يا عماد باشا.. لا هاجي لسيادتك على طول.. في خدمة سعادتك يا باشا.. في رعايه الله..

أنهى المكالمة، وقام ارتدى حذاءه – كان يخلعه إن جلس، وخرج إلى الشارع، فخرجت خلفه لآخذ أجري، فرأيته يتحرك مسرعًا وكأنه يهرب، فتبعته قليلًا حتى طرأت لي فكرة تتبُّعه، فقد أرى شيئًا أبتز به الشيخ، أو حتى أؤذي علي، وصل إلى بيته وصعد، ولم أنتظر طويلًا حتى رأيته مرتديًا القميص والبنطلون وتخلى عن الجلباب، أوقف سيارة أجرة فلم يستجب له السائق، فأخرج هاتفه وأجرى مكالمة قصيرة، وجلس في مدخل العمارة دقائق قليلة، وظهر أيمن يقود سيارة الشيخ ورحلا معًا..

انتظرت دقائق وكلمت أيمن وسألته عن مكانه ووجهته فتهرب مني، أخذت ألح عليه حتى أنهى المكالمة، لم يكن لدي حل آخر، فرحلت، لكن أيمن عاود الاتصال بي..

– إيه يا عم.. مالك كده سخن علينا.

– لا مؤاخذة يا عم أيمن.. بس أنا لازم اعرف ودِّيت علي فين؟

– وراك إيه ياض؟ أنا ودِّيته الزمالك.. بس ما كنتش عايز اقول قصاده عشان هو عارف إني بكلمك انت..

شكرته وأخذت العنوان تفصيلًا، وحين وصلت بعد عناء شديد كانا قد رحلا، لكني وجدت البناية التي وصفها أيمن لي، واندهشت من كثافة الأمن حولها، فسألت أحد العساكر عن السبب، فأجاب:

– أصل العمارة ديًا فيها حكومة ياما..

– ساكن في العمارة دي واحد اسمه عماد بيه.. تعرفه؟

– قصدك اللواء عماد؟.. إلا انت مين؟

أمسك بكتفي، لكني تخلصت منه ببساطة وطرت أبحث عن محمد بيه، وجدته في النهاية عند بيته في ملابسه المدنية يدخن جوان مع رفيقين، سلمت على ثلاثتهم وتناولت الجوان..

- طب ما ندَّارى شوية..

ضحك بصوت هادئ وصفعني برفق قائلًا:

- انت واقف مع الحكومة يا اهبل.

دخَّنت معهم ستة أو سبعة جوانات، ولم أبدأ في سرد قصتي ومعلوماتي القيِّمة إلا حين رحل رفيقيه وبقيت أنا وهو، ناولني جوان وأشعل هو آخر، فاندهشت من تلك الطريقة في التدخين، وحين أنهيته كنت مسطولًا تمامًا، وكذلك كان هو، فأخذنا نضحك ونتكلم ونعبث، إلا أنه توقف بعد وقت، وقال دون أن تتغير لهجته أو ملامحه:

- انت إيه اللي جابك؟

- عرفت لسيادتك مين عماد بيه..

- اللواء عماد؟

اندهشت من أنه يعرف، وأن معلوماتي بلا قيمة..

- ياض ما هو لما قابلتهم في المطعم كان عايزك تقولنا إنه مسنود من اللواء..

انتهى الحديث الهزلي بعدها، وأخرج هاتفه يتحدث، فبقيت أنتظره أكثر من نصف ساعة، كان يجيء ويذهب ويتكلم مع المارة دون أن يترك

الهاتف، ولا أعلم في أي لحظة رحلت، إلا أني وجدت نفسي منتشيًا بصوت الشجر ورائحة الهواء الدافئة والأضواء الخافتة، كان المكان الأجمل الذي أعرفه، فقادتني أقدامي إلى هناك، ورأيت صورة هند في مداعباتها واحتكاكاتها غير البريئة فانتعشت، حاولت الاتصال بها مرارًا و لم تجب، فقررت أن أصعد لبيت الشيخ لعلّي أر ضفيرة أو ذيل فستان من ابنته الفاتنة..

فتحت لي الباب بجلباب صيفي يظهر ساقيها إلى الركبة، وجزءًا من ذراعها الأبيض اللامع، فتلعثمت.. لقد أخذت ما أريد الآن، فماذا أتى بي؟

– الـ..حـ..اج..

نظرت إليَّ بريبة وتوارت خلف الباب، قالت: "نايم".. وهمت بغلق الباب، فأدركت أن موقفي سيئ، وأنها قد لاحظت نظرتي إلى جسدها، فدفعت الباب في الاتجاه الآخر كي أفسر موقفي، فارتطم بذراعها، فسمعت الصوت "آه".. مثيرًا ومرعبًا في آن..

دخلت أطمئن عليها، فأمسكت ذراعها وتأسَّفت، وتحسسته، فصعدت إلى رقبتها ووجهها وقبلتها، فوجدت القبلة تُرد في اتجاهي، فاندهشت، لكني كنت في قمة النشوة، فالتصقت بها على الأرض أقبل كل شيء أصطدم به، وبعد مدة لم أدركها دفعتني وقالت ضاحكة:

– كفاية أحسن نتقفش.. كفاية بقى قوم..

رفضت الابتعاد، أو بالأحرى لم أقدر على الابتعاد، رغم إحساسي الرهيب بالخطر إلا أن كمية المخدر تغيِّبني تمامًا عن الوعي، وحين أعود أندهش من وضعي فوقها، فأندمج في قبلة جديدة حتى أغيب

عن الوعي من جديد، استغرقت القبلات نصف ساعة على ما أعتقد، وكنت أحتك بصدرها وأردافها عن عمد ونحن نتقلب فوق الأرضية، تنكشف ساقاها فتنزل الجلباب، ألمس منطقة محظورة فتدفعني بلطف، حتى وجدت الحل عن طريق الصدفة، حين احتك عضوي بفخذها، فكررت عملية الاحتكاك حتى شعرت بالسائل يخرج والارتخاء يبدأ، فدفعتني غاضبة وقد ابتل ثوبها..

- يلّا اطلع برّا..

ودفعتني حتى وجدت نفسي أمام الباب والباب مغلق، فداخلني الشك.. هل حدث شيء من هذا، أم إنها أوهام المخدر؟

عدت للشارع أحاول التركيز، بدا تدخين الحشيش والضحك والعبث مع محمد بيه أكثر منطقية مقارنة بذهابي غير المبرر لبيت الشيخ، وما أعتقد أنه حدث بعد ذلك أمام باب الشقة في بهو الاستقبال بيني وبين ابنته، التي كنت أتمنى أن ألمح شعرها أو ذيل ثوبها، كنت أمد يدي ألمس البلل فوق البنطلون فأندهش، لكني ما زلت على يقين من أن كل ذلك من أوهام المخدر، كلمتني هند وقالت بصوتها المبحوح:

- كنت بتكلمني من شوية ليه؟

لم أُطق صوتها فسببتها وأنهيت المكالمة، واعترفت لنفسي بأن ما حدث حَقيقي، فركضت حتى البيت.

أعطتني تلك الحادثة إحساس بالثقة غريب، فصرت أتحايل على الشيخ وأبتز منه المال دون أي حجة أو مبرر، وأزور محمد بيه في القسم ندخن الحشيش ونضحك، وقد أنزل إلى الحجز لأشارك في حفلات الضرب المقامة للمحجوزين.

لم يكن يزعجني سوى علي وتعمده إهانتي كلما رآني، فبطريقة أو أخرى يحول مجرى أي حديث أشهده إلى "نكتة" عليَّ، فتثور أعصابي ولا أفعل شيئًا، أو يسلمني عمولتي باحتقار ليشعرني بالفارق، في ظروف أخرى موقف وحيد كان كفيلًا بأن أنفجر وأدخل في شجار، لكني أضاجع ابنة الشيخ، وهذا يجعلني أتجاوز أي غضب وأنتعش.

هي كانت شبقة بدرجة مرضية، حيث كانت تستمتع بإظهار مفاتنها لأي شخص ذكر كان أو أنثى، وتستمتع بسماع السباب يوجه إليها، ولا أدري إن كان خليفة قد حدد إقامتها في المنزل بسبب هوسها، أم إن إقامتها المحددة في المنزل هي سبب هوسها، لم يكن يهمني ذلك كثيرًا، فكل علاقتي بها كانت المداعبة الجنسية، حيث اعتدت تدخين الحشيش بكمية كبير كل ليلة، ثم أذهب إلى بيتها،أرن على هاتفها فتفتح لي الباب في ثوان، أما إن طالت هذه الثوان أفهم أن الظروف غير مهيأة وأهرب، كنا نمارس نفس الأفعال من تقبيلَ وأحضان واحتكاكات كلما تقابلنا، لكني تعودت أن أتجرأ أكثر في كل مرة.. ألمس منطقة محظورة، أو أتسلل بيدي داخل الجلباب، أو أسبّها وأرى تلذذها بذلك، حتى أني رفعت الجلباب – الذي خصصته للقاءاتنا – إلى ما فوق صدرها و لم تعترض، بل كانت تتأوه، إن لم أكن أتناول جرعة مخدرات هائلة قبل الذهاب إليها لم أكن لأجرؤ على فعل شيء من هذا في بهو منزل الشيخ خليفة، ومباشرة أمام الباب.

في لقائي الثاني بها كنت مخدرًا تمامًا وقادتني قدماي إليها، ووقفت أتردد طويلًا أمام الباب، وحين رأيتها لم أفكر، و لم أسأل عن شيء، فالتصقت بها وهي تجاوبت معي و لم تتخلص مني، بل جذبتني إلى الداخل، وبعد أن احتدمت بيننا المعركة سمعت صوت سعال خشن،

فأدركت أنه الشيخ، وأنه يتحرك قادمًا في اتجاهي، فقفزت إلى الباب ورحلت.

وبعد عدة لقاءات كان الملل قد بدأ يصيبها، فكانت تتعمد المخاطرة بأن يرانا أحد، فأصبحنا نتنقل داخل المنزل، أو أمام الباب من الخارج، أو داخل المصعد، ولم يكن كلامي معها يتجاوز الجملتين كل ليلة وهي لم ترد أبدًا، وذهبت كعادتي مخدرًا، وما إن فتحت وجذبتها للخارج لنمارس في المصعد – حيث أشعر بأمان نسبي، جذبتني هي للداخل، وهمست في أذني بصوت مرتعش:

– مافيش حد هنا.. كلهم سافروا..

كان لقاؤنا اليومي يستغرق عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر، وقد ينتهي باكتفاء أحدنا أو باقتراب الخطر منا، لكن هذه الليلة لم يكن لها مثيل في حياتي كلها، استمتعت بكل شيء، فبعد أن أنهينا الوصلة الأولى في البهو، جذبتني من يدي، وفتحت أحد الأبواب الثلاثة، ورأيت النعيم...

كانت "السفرة" مكونة من اثني وعشرين كرسي أبيض اللون، تتدلى من فوقها نجفة زجاجية عملاقة، وعلى يمينها ويسارها ستائر حريرية، يختبئ خلف إحداها المطبخ الفسيح، وخلف الأخرى مجموعة من الشلت أقل عددًا من البهو، ويتوسطها صحن نحاسي ممتلئ بالفاكهة، ومجموعه متناثرة من الشِّيَش، كان الطعام على السفرة متنوعًا وكثيرًا لم أعرف أغلبه وأنا أتذوقه، لكني تعرفت على اللحوم والدجاج، ولم أستسغ بعضه، لكن البعض الآخر كان فوق الوصف، لم أكن حتى أنظر إليها بينما آكل، وحين انتهيت دخلت إلى الحمام الأبيض اللامع، كان

في حجم السنترال أو أكبر، وكان من نظافته يعكس الضوء في عيني، اغتسلت وبدأت أفيق، ورفعت رأسي مرة أخرى لأواجه أضواء تأتيني من كل اتجاه، حاولت أن أتذكر أين أنا أو ما جاء بي إلى هذا المكان، وجدت في جيبي جوان، وما إن أشعلته حتى تذكرتها – كانت صورتها مرتبطة برائحة الحشيش، فصرخت بأعلى صوتي:

– إنتي يا بت.

جائتني في ملابسها الداخلية، وردَّدت الإهانة بامتنان، مارسنا مرتين في الحمام، ومرة أخرى في "القعدة العربي" الملاصقة للسفرة، وحين انتهيت تمامًا سقطت نائمًا، واستيقظت على صوتها تضحك وهي تتكلم في الهاتف، نظرت إليها.. كانت ترتدي عباءة وطرحة، بينما أنا عارٍ تمامًا، حين رأتني أتحرك تركت الهاتف وجاءت..

– قوم الله يخرب بيتك.. أنا افتكرتك روحت فيها.

– إنتي أبوكي فين؟

– انت لسه هاتحكي؟ قوم ياض..

– هو انتي اسمك إيه؟

– أبويا زمانه جاي ولو قفشك هيخصيك..

ألقت ملابسي إلي وقالت بجديه وحزم:

– في أكل ع السفرة.. كل والبس وامشي.

واختفت في دهاليز البيت الضخم، أكلت وخرجت أملك العالم.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهرًا بقليل، ولا أذكر من أحداث الليلة الصاخبة سوى لقطات متقطعة بسبب كمية المخدر في رأسي، وبينما أحاول تجميع أطراف الصورة رن هاتفي، وأجبت:

- السلام عليكم!!

- مين معايا؟

- اللي علي يقولك عليه اعمله.. أنا جاتلي سفرية مفاجأة امبارح، وهارجع إن شاء الله بكرة الصبح، لو علي طلب منك حاجة نفذها.. مش هاقول تاني.

لم يعنني شيء مما قاله الشيخ سوى أنه لن يعود قبل غد.. إذن فأمامي ليلة أخرى صاخبة..

أمضيت اليوم أتسكع، حتى قررت الذهاب إليها، فاشتريت قرش حشيش كامل، ولم ألف سوى جوانين؛ لأدخن البقية بصحبتها، وقبل أن أشعل الأول كلمني علي، وطلب مني الحضور في الحال، فذهبت، وما إن دخلت المقهى، وبعد أن ضحك رفاقه لمجرد رؤيتي، أخرج ست ورقات من جيب جلبابه، وقال:

- روح يا ابني هات الحاجة دي..

أدركت أنها مجرد كمبيالات أو فواتير..

- ابعت أي حد يا علي.

- اجري يالا اعمل اللي بقولّك عليه..

نظرت من حولي فرأيت رفاقه في كل مكان، وأدركت أن الشجار الآن ليس في صالحي، وأن أي دقيقة تضيع محسوبة من عمر ليلتي المنتظرة، فأخذت الأوراق ورحلت.

تأملت الأوراق فوجدتها خمس فواتير لشخص واحد اشترى حليًّا ذهبية من متجر ما، والورقة السادسة بها عنوانه بشارع فيصل، تمكنت من العثور على سيارة أجرة تذهب إلى هناك بعد ساعة أو أكثر من الانتظار، ثم تعذبت في الزحام القاتل للشارع، وكانت كل دقيقة تمر تزيدني سخطا وحنقًا على الوقت المهدر، وصلت إلى أول دليل للعنوان بعد ساعة أخرى، وبدأت أتنقل سائلًا من شارع إلى آخر أصغر فأصغر، حتى وصلت إلى بيت من طابقين في شارع ضيق يبدو مهجورًا، فناديت باسم الرجل المسجل في الفواتير، فخرج من خلفي شاب يسألني:

– عايز إيه يا نجم؟

– عايز عصام السيد..

– آه.. عايزه في إيه يعني؟ وبعدين اسمه عم عصام..

– معايا أمانه عايز أديهاله.

كان يرتدي بنطلون جينز وفانلة حملات كانت بيضاء، نحيل جدًّا لكن عروقه نافرة فوق ذراعيه، وتقسيم عضلاته – الصغيرة – واضح جدًّا..

– ورِّي الأمانة..

– يا ابويا من غير حوارات دلِّني عليه أو اتوكل على الله..

كنت واثقًا منذ رأيته من أنه ليس مسالمًا؛ لذلك لم أندهش عندما بدأ الشجار، وتمكنت منه رغم سرعة يديه ورشاقة جسده، أمسكت برأسه ودفعتها إلى الحائط، لكنه بطريقة ما حرر رأسه ووجهها جانبًا؛ فاصطدم فكه السفلي وجزء من أذنه بدلًا من جبهته، استدار وقد جاء شاب آخر من خلفي، ثم أصبحوا كتيبة شباب، لم أعد أقاوم بعد دقائق، وكنت أغيب عن الوعي بضربة وأعود إليه بأخرى، حتى أفقت على صراخ نسوة، وشعرت بأطرافي الأربعة تتحرك، بينما الدم يقطر من جبهتي وقدمي وذراعاي، ثم شعرت بدفء الإسفلت على وجهي، ورأيت إطارات سوداء لسيارات وأضواء كثيرة منكسرة، وأصوات مختلطة مشوهة لم أدرك أيًّا منها...

أفقت في المستشفى، وأدركت أنهم سرقوا هاتفي والنقود والفواتير والحشيش ولم يتركوا شيئًا، طلبت أن أتصل بـ"محمد بيه"، وحين أخبرته بما حدث اتصل بضابط صديقه في قسم الهرم، الذي أرسل بعد ساعة واحدة أمين شرطة أخرجني من المستشفى، وطلب أن أدله على العنوان، وتحركت في الميكروباص الأبيض حتى وصلنا الشارع نفسه، فنزل المخبرين والأمين يصطادون أي شاب أو رجل، يتبادلون صفعه ولكمه، ويلقونه داخل الميكروباص "الرامه" حتى امتلأت السيارة بالشباب والرجال مكدسين فوق بعضهم صامتين، ولم يكن بينهم الشاب الذي بدأ كل ذلك، وهو الوحيد الذي رأيت وجهه، وبعد ثلاث ساعات جاءوا بالشاب وثلاثة آخرين، وكان معهم هاتفي ونقودي والفواتير، وأدركت أنهم مجرد صبية كانوا يدافعون عن صديقهم، كما أنهم تلقوا كمية هائلة من الصفع والركل، فما إن عادت لي ممتلكاتي، فقررت أن أتنازل عن المحضر وأتركهم يرحلون، شكرت الضابط والأمناء، واتصلت بـ"محمد

بيه" شكرته، وأمام القسم بينما أترنح من الإعياء جاءني نفس الشاب النحيل، وقال:

– بص.. هي لا محبة ولا جدعنة.. بس انت كده ليك ف ذمتي واحدة.

نظرت إليه لا أفهم، فأضاف:

– انت طلعت كويس، شوف مين اللي عمل فيك الفصل ده.. مفيش حد في شارعنا اسمه عصام السيد، واللي ييجي عندنا يسأل عليه نعرف إن حد من حبايبنا باعته يتأدّب..

فغلى الدم في عروقي، وأدركت لم ضحك أصدقاء علي لمجرد رؤيتي حتى قبل أن يلقي النكتة، هو تسبب في هذا القدر من الألم والإهانة، وأفسد الليلة المنتظرة، فقط ليضحك هو وأصدقاؤه!

– تعرف واحد اسمه علي؟

– يابا حبايبنا كتير، بس اللي عمل فيك كده هو اللي قالك الاسم وادّاك العنوان.

كانت الشمس قد انتصفت في السماء، فأدركت أني أمضيت الليلة وجزءًا من النهار بين المستشفى والقسم، وأن الشيخ خليفة قد عاد، أو على وشك الوصول، وبهذا يكون علي قد أضاع السهرة الصاخبة التي ربما لن تتكرر قريبا، هذا غير جرح في جبهتي، وآخر في كتفي، وورم في شفتي وذقني وعيني، وإعياء شديد استمر لمدة ثلاثة أيام أمضيتها في مدخل العمارة مكان عبد المقصود، ولم أكن أخرج إلا لشراء شيء آكله

كلما جعت، وألقي نظرة على المارة، وأعود أنام على ظهري لا أفكر في شيء سوى علي..

تلقيت الاتصال من الشيخ وأعطاني العنوان، فذهبت قابلت المقاول الصعيدي المديون للشيخ بمبلغ، وكان متعثرًا، وكان يناقشني في أن يخفض المبلغ أو يدفعه على دفعات، وتلك الحالة كثيرًا ما حدثت، وكان الشيخ يرضى بأن يأخذ أي نقود، لكن يجب أن أبلغه أولًا... وخطرت الفكرة في رأسي..

- انت عليك كام بالضبط؟

- خمستاشر ألف.

- معاك كام دلوقتي؟

- تلاتة.

أخذت الهاتف وادَّعيتُ أني أتكلم، ثم عدت إليه:

- إتصرَّف وخليهم خمسة.

انتظرته مدة وعاد عابسًا..

- الله وحده يعلم أنا اتصرفتلك في الفلوس دي ازاي..

أخذت النقود، وفي طريق العودة اشتريت وقية حشيش بمائتي جنيه، وذهبت إلى بيت علي، فتحت تهاني الباب في جلباب متسخ، وبدت في تلك اللحظة أنحف وأقبح من أي وقت مضى..

– ازيك يا ست تهاني.

– هو انت؟!

صرخت بعد أن تأملتني قليلًا:

– أيوه أنا.. علي هنا؟

– لأ مش هنا.. عايز إيه منه؟

– طب ادِّيله الأمانة دي..

ناولتها الكيس بداخله الحشيش وأربعة آلاف جنيهًا..

– دي إيه دي؟

– دي فلوس الشيخ.. ادِّيهاله بس وهو هيفهم..

رفضت في البداية، لكن بعد إصراري، وبعد أن تحسست الكيس مرات وتأكدت من أنه يحوي نقودًا، اختفت داخل المنزل، وأعتقد أنها سألت زوجها، فعادت وتناولت الكيس وأغلقت الباب، حتى إن فتحت الكيس بعد أن أرحل فلن تتخلص من الحشيش وستتركه لزوجها..

ذهبت إلى القسم، صافحت المخبرين والأمناء، لم تكن وردية "محمد بيه"، لكنهم جميعًا يعلمون أن علاقتي به تتعدى كوني مرشدًا..

– مصلحة حلوة.. واد أنا مخنوق منه ومعاه حشيش، كل اللي عليك تفتشه وتطلع منه الحشيش، والفلوس اللي معاه تبقى بالنص بيني وبينك، وياخد الطريحة في الحجز، وانت حر فيه بعد كده، تعمله محضر،

تحبسه، تسيبه، اللي انت عايزه.

تفاوضنا لفترة، واتفقنا أن النقود ستقسم على ثلاثة، أنا والأمين الذي اتفقت معه وأمين آخر هو من سينفذ؛ حيث لا يمكن لهذا أن يترك القسم.

– بس بقولك إيه.. حكاية الفلوس دي خليها بنا لحسن تدخل في الحرز..

خرجت وكلمت الشيخ أخبرته بأني أخذت المبلغ كاملًا وسلمته لعلي، واتصلت بعلي أبلغته بأن النقود في بيته حيث لا أنوي مقابلته.

انتظرت أنا والأمين قرب بيت علي حتى رأيناه خارجًا يحمل الكيس الأسود، وأشرت للأمين بأنه هو، فبدأ عمله.. أوقفه للاشتباه، ووجد الحشيش، لم يحاول علي التملص منه أو رشوته، فاقتاده الأمين إلى القسم في سيارة أجرة، وأمام الباب تسلّم الأمين الآخر النقود كلها، وأعطاني ألف جنيه فقط، رضيت وعدت إلى صاحب العقار "المقاول"؛ لكي أضمن ألا يقول شيئًا للشيخ عن أصل المبلغ الذي دفعه..

– يابا انت كده كده هاتدفع، بس لو الشيخ سألك قوله دفعت، أنا سددتهملك من جيبي، ولما تجيب الفلوس هاخدها أنا، لو مش كده يبقى تقول للشيخ إنك مديونله بعشرة وما فرقتش حاجة، هاخد أنا فلوسي منه.

ارتاب في أمري وارتبت في نيته، وبعد ساعة من الجدل قال:

– انت شكلك بتعمل حكاية، بس أنا مصلحتي معاك، ومصلحتي إني أدفع خمسة بس ع الخمسة اللي راحوا، يبقا الشيخ وصله الخمستاشر.

دارت المفاوضات طويلًا، وبسبب ضائقته الحالية استقرينا على أنه سيدفع ثمانية آلاف ونصف، ويكتب لي إيصال أمانة بعشرة آلاف، ويأخذ الألف ونصف الفارق الآن، دفعت الألف ونصف ورحلت في جيبي إيصال أمانة بعشرة آلاف جنيه، غير ثلاث مئات في جيبي، وعلي في القسم يتم التحقيق معه، غير أنه سيبدو لصًا أمام الشيخ حين يتصل بالمقاول ويعلم أني تسلمت المبلغ كاملًا، وأن حماقة علي وتدخينه للحشيش هي السبب في تبخر خمسة عشر ألفًا..

بدا وقتها أن كل شيء يسير كما تمنيت، وكانت الخطة – في تصوري – مكتملة ومحكمة.

ذهبت إلى القسم لأشارك في الترحيب بعلي، فوجدت محمد بيه..

– عملتها ازاي دي يالا؟

– عملت إيه بس يا باشا؟

– علي امسك بحشيش كده صدفة؟

– يا باشا رجالتك شايفة شغلها كويس..

– الواد قال في المحضر إن الحاجة مش بتاعته، وإنه لقاها مرمية في الشارع.. بس قال برضه إنه بص في الكيس وكان فيه فلوس.. تعرفش راحت فين الفلوس؟

– يا باشا وأنا بس دخلي إيه؟ هو أنا اللي مسكته؟

– طب إيه اللي جايبك هنا؟

– بعد إذنك عايز أطل عليه..

ضحك ضحكو هادئة، وأشار برأسه أن أذهب، فتح باب الحجز ودخلت برفقة مخبر ضخم هو متعهد إقامة الحفلات داخل الحجز، فتناولت علي، و لم يقاوم بالمرة، حتى حين أخرجت ولاعتي وأشعلت النار في لحيته لم يفعل شيئًا سوى أنه أطفأها بطرف جلبابه وترك لعابه يسيل عليها ليبردها، و لم أشعر بالنصر إلا حينٍ سحبته خارج الزنزانة للنور ورفعت رأسه في مستوى رأسي، فنظر إلي منهكا وأنفه يدمي و لم ينطق، فهمست في أذنه:

– شوفت عصام السيد بيعمل إيه؟ إلا صحيح.. هو انت اتعلمت ولا تهاني جابت العيال دي منين؟

أثارت تلك الدعابة ضجكي دون أي افتعال، فدفعته إلى الداخل ورحلت لا أتمالك نفسي من الضحك.

اتصل بي الشيخ، وقابلته في بيته، ولمحت ابنته حين فتح أحد الأبواب ذي المرايا، وكانت ترتدي الثوب الذي اعتادت أن تتلقى عليه سائلي المنوي، عاد الشيخ قبل أن أنسى وجوده، وقال:

– يعنى انت ادِّيت علي الخمستاشر ألف وحطِّيت جواهم حتة حشيش؟!

– ياحاج أنا خدت الكيس زي ما هو، وادِّيتهوله، ولا أعرف حتى كانوا كام.

– إيه اللي جاب الحشيش في الكيس؟

– أنا عمري ما فتحت كيس أخدته، وانت نفسك موصيني بكده.

صمت قليلًا وأخرج هاتفه..

– أيوه يا عماد باشا.. لا بس كنت عايز خدمة كده.. آه ليا أنا، الواد علي انت عارفه يا باشا.. أيوه اللي جه لسعادتك.. مافيش.. دي حتة حشيش.. ومش عايزينه يروح النيابة.. بس كده.. لا يا باشا ما يلزمنيش.. بس سري معاه.. وكده ولا كده هيخرج.. فأبقى عملت معاه واجب.. ربنا يخليك لينا.. آسفين على الإزعاج.. في رعايه الله.

أخبرني الشيخ أن أغرب عن وجهه، لكن أبقى قريبًا، فقد يطلبني في أي لحظة، أمام المصعد لم أقدر على تجاهل صورتها، فأخرجت هاتفي واتصلت، وطلبت المصعد، وقبل أن يصل كانت هي قد فتحت الباب، فسألتها بصوت خفيض:

– أبوكي فين؟

– لو في قلق ماكنتش فتحت.

صعدت على السلم إلى الطابق التالي، وتأكدت من أن الأبواب مغلقة، وبدأت، فسألت دون أن أتوقف:

– هنا ع السلم؟

– كله بيطلع في الأسانسير.. ماحدش هيشوف.

لم تجدي القبلات والاحتكاكات نفعًا، فقد كان طموحنا وقتها أكبر

من ذلك، فرفعت ثوبها وأخرجت عضوي ومارسنا الجنس واقفين، ودون أن نخلع قطعة ملابس واحدة، وحين انتهينا ركضت إلى طابقها، وسمعت صوت الباب، فأخذت المصعد وهبطت.

أكلت وابتعت علبة سجائر مستوردة، دخنت باستمتاع وأنا آكل "أم علي" على المقهى، ثم اتصل بي الشيخ فعدت إلى بيته، ووجدت علي في حالة يرثى لها، جلبابه ممزق ولحيته متآكلة بفعل النار، والدم والتراب يغطون جسده، غير بعض الجروح السطحية في وجهه..

ضحكت حين رأيته، و لم يعرني اهتمامًا، وبدأ الشيخ..

– قول اللي حصل يا علي..

– أنا جالي تليفون منه، قال لي سبتلك الفلوس في البيت عشان مش طايق أشوف خلقتك، روحت أخدت الكيس ولقيت في الحشيش، بس قبل ما ارميه الأمين كان قدامي.

– يا ابن الوسخة أنا جيتلك البيت؟ يالا أنا مش مقابلك ع القهوة ومدِّيك الكيس؟

– يا حاج مراتي تشهد.

– ما هي مراتك هتعوم على عومك.

فغضب الشيخ وبدا ذلك واضحًا في نبرته..

– أنا مالي انت جيتله هو راحلك.. الفلوس فين يا ولاد المـ...

– يا حاج أنا روحت القسم وأنا ماسك الكيس، وع الباب الأمين

خد الفلوس وادَّاني الحشيش.

– يعني الفلوس ما اتحرَّزتش؟!

– لا يا حاج، وأنا قلت في المحضر إن الكيس كان فيه فلوس.

– بس قلت إن الكيس مش بتاعك وإنك لاقيه في الشارع.

– وانت عرفت منين يالا؟

– يا شيخ ما أنا كنت عند محمد بيه وهما بيحققوا معاه.

استمر الجدل طويلًا بين روايتي ورواية علي حتى أنهى الشيخ الكلام قائلًا:

– ولا انت وهو.. أنا ماليش في ديك أمه.. المقاول قال إنه سلمك خمستاشر ألف جنيه، تقبوا انتو الاتنين وتغطسوا والفلوس دي ترجع في ظرف يومين، غير كده أنا هاتصرف معاكوا..

لم أفكر لحظة في التراجع، لذلك خرجت من عند الشيخ هادئًا، وأمضيت أيامًا مملة وطويلة، لا أفعل شيئًا ولا أتكلم مع أحد؛ فأصدقاء الشارع توقفوا عن التعامل معي بعد ان تأكد لهم جميعًا أني مرشد للحكومة، وهند توقفت منذ زمن عن الرد على مكالماتي، كما لم أجرؤ على الاقتراب من بيت الشيخ كي لا يفضحني علي، وكنت موقنًا أنه يبحث عن انتقام، فكنت أنفق ببلاهة، فأجلس على المقهى وأدخن كثيرًا، وآكل ثلاث أو أربع مرات في اليوم، حتى وصل بي الحال لأن أنفق عشرون جنيهًا في يوم واحد، فانتبهت إلى أني قريبًا سأطرد من المأوى وأعود إلى الشارع طال الزمان أو قصر، إلا أني عائد إلى التشرد لا

محالة، وكان عزائي أني سأسحب علي معي إلى الحضيض، قررت الذهاب للمقاول لآخذ العشرة آلاف جنيه مستحقاتي فتهرب مني لثلاثة أيام، وكنت كل مرة أعود أكثر يقينًا بأن سأحصل على المبلغ بمجرد أن أراه..

كان الملل يخنقني، والوحدة تملأني كآبة، فأمسكت الهاتف أبحث عن شخص أمضي معه ساعة أو اثنتين، حين ظهر أيمن بوجهه الوسيم وجسده الممتلئ في خيالي؛ فكلمته وذهبت إليه في الحال، كان يجلس على مقهى مع بعض الأشخاص، وما إن اقتربت حتى تبينت ملامح علي، جلست بعد أن صافحت الجميع، وتكلمنا كثيرًا حتى بدأوا يرحلون واحدًا تلو الآخر، حتى لم يبق سواي وأيمن وعلي، فتركنا المقهى ومشينا ندخن جوان، تكلمت مع علي بحذر في البداية، ثم طاح المخدر بحذرنا، فضحكنا وعبثنا، وفي خلال أسبوع كانت علاقتي بأيمن قد توطدت، كما تحسنت علاقتي بعلي، كنا نتكلم في كل شيء، اللهم إلا الشيخ خليفة وكل ما يخصه، وفي يوم حين كنا نجلس قبيل الفجر أمام بيت أيمن، قال علي دون أي مقدمات:

– أنا عارف إن انت اللي خدت الفلوس.. بس أنا ماليش صالح.. ما هي مش فلوسي.. وإن كان ع الشيخ فهو كمان عارف إني نضيف وهارجع الشغل تاني.

فارتبكت ولم أجد ما أقول، وحين بدأت أجمع كلماتي، وقبل أن أنطقها..

– أصله يا أنا يا انت، وأنا ما أخدتهمش، تبقى مش عايزة مفهومية..

فتدخل أيمن في الحديث..

– اللي بيطول حاجة بياخدها يا ابويا، الكبير بتاعك ماشي على كده هو نفسه.. واللي فوقيه برضه كده، المهم إنك ما تغلطش، وما تخليش حد يمسك عليك حاجة.. ولا إيه يا أبو أسد؟

نظر إلى علي فأدركت أن أحد أبناء علي يدعى أسد، فكررت الاسم مرات حتى ضحكت..

– تلاقيك مسمِّيه كده عشان يقولولك يا أبو أسد..

– طب ما أبوك مسميك غالي عشان يقولوا له يا أبو غالي.

– ولا حد عمره قالها له.

– عشان ماحدش كان يعرفه.

– الله يرحمه.

فتدخل أيمن..

– الله يرحم المسلمين كلهم، بس انت أبوك ما كانش حد يعرفه ليه؟ كان جربان؟

ضحك كلاهما حتى دمعت عيونهما، وكان الحشيش يجعلني أرى كل شيء في صورة مشاهد متقطعة، فانفعلت، وتكلمت بعصبية، لكن الكلام خرج مقلوبًا وغير مفهوم، فدخلوا في نوبة ضحك هستيري، وانقلب إلى سعال حتى هدأ علي وقال:

– والله انت غلبان أوي ياض يا غالي.

– بس ما تقولش غلبان.

– ياض ده انت تلاقيك لغاية دلوقتي ما عرفتش نتاية.

أشعل أيمن جوان آخر وقال:

– انت صحيح لسه عذراء؟

لم أنطق رغم رغبتي الملحة في النفي، فأضاف أيمن:

– انتوا الاتنين أغلب من بعض، أنا اشتغلت مع الشيخ ده أيام عزه، لا كان يعرف حد ولا عنده اسم يخاف عليه، ولا مصالح ولا عيال، وما كانش حد في مصر يعرف يلفه، أنا لفيته وحطيته ف جيبي، وطلعت من وراه مصالح بالعبيط، وأمّنت نفسي بكام حاجة عرفتهم عنه، وقعدت اطلع منه مصالح... السواق بتاعه؟! وماله؟!! ما أنا باخد أجرة خمس سواقين، ولو عوزت زيادة باخد، ومعزز مكرم، وهو كل اللي عايزه إني أفضل قصاده.. مش زيكوا انتوا الجوز.. اشتغلتوا تحت رجليه، ورمالكوا ملاليم، وفي الآخر طردكوا.

– أنا ما انطردتش يا أيمن، أنا راجع راجع، وإن كنت انت عرفت كام حاجة عليه أنا مصارينه كلها معايا...

– وأنا أخدت مصلحتي وهاخلع.

– انت فاكر يالا الخمستاشر بتوعك دول مصلحة؟ تلاقيك يا عيني سايب نصهم للأمين اللي عمل معايا نمرة الحشيش.

– خمستاشر ألف يا غالي؟! وبتقول مصلحة؟! ده الشيخ ده أخيب صبي عند سيادة اللواء، والكلام على عمارات وأراضي وشقق ومحلات، اللعب بالملاييين يا غلبان.

– يا عم الحمد لله على كده.

– طب تعرف انت إن سيادة اللواء قرف من الشيخ وممكن في أي يوم يسيبه للحكومة، وساعتها اللي هياخد مكان الشيخ هياخد العز ده كله.. تخيل نفسك انت راكب عربيته دي، ولا قاعد في شقته دي.. وبعدين إيه، مش هاتعمل شيخ، لأ دخ انت تقضيها محدش له عندك حاجة.

– آه ياض يا أيمن تخيل لو عيالنا يشوفوا العز ده.

– عيالنا إيه يا معفن، انت ما شفتش بناته عاملين ازاي؟ دي البت لونها زي ما تكون ما شافتش شمس.

توقفت عن الفهم بعد هذه الجملة بفعل الحشيش، وثقلت رأسي، فتركتهما ورحلت، ولا أعلم ماذا دفعني في ذلك الاتجاه، لكني وبعد أذان الفجر مباشرة وجدت نفسي أواجه مدخل العمارة التي يسكن بها الشيخ، وكانت كمية المخدر تكفي لأن تجعلني أصعد، كما تمنيت فتحت هي الباب وصعدنا إلى السلم ما بين الطابقين، ولم نكترث بأي شيء، فخرجت أصواتنا عالية تدل على فعلتنا، وأعتقد أن أحدًا قد رآنا، لكني بسبب الفراغ ترددت كثيرًا على بيتها، حتى صار يومي يبدأ بالبحث عن المقاول ومطاردته دون أن افقد الأمل للحظة، ثم العودة للنوم مجددًا حتى يبدأ الليل، فأذهب وأقابل أيمن ورفاقه، وأتحمل سخرية

علي أمامهم، ثم تدخين المخدرات حتى أفقد كل الإدراك، فأذهب إليها، وهي لم تردني يومًا خائبًا، واكتشفت أنها تتعمد أن تعرضنا لخطر أن يرانا شخص أو مجموعة أشخاص، فبعد أن كنا نمارس أمام باب البيت أصبحنا على السلم بين الطابقين، ثم في مدخل العمارة، أو على السطح، أو حتى الجراج مختبئين خلف سيارة، وعرفت أنها لا يمكن أن تتجاوز حدود العمارة بعد أن تركت التعليم وطلق الشيخ والدتها، واحتفظ بها – هي – قهرًا، لم أعرف عنها أكثر من ذلك، فقد كانت العلاقة تبدأ حين نتقابل، وتعاملني بازدراء بعد انتهائها، لذلك لم نتكلم كثيرًا، كما لم أعرف اسمها حتى الآن، وفي تلك الممارسات العابثة تم ضبطنا أكثر من مرة، لكن أكثرها وضوحًا حين رآنا السايس في الجراج، وكنا خلف السيارة التي ينام داخلها، هو اكتفى بالمشاهدة ولم يتكلم، ورآنا بعض الشباب على السطح المقابل، فلم يفعلوا شيئًا سوى أنهم قاموا بتصويرنا عبر هواتفهم النقالة، وكانت هي مستمتعة بذلك، ولم يكن هناك ما يعيبني فاستمر تقديم العرض لهم.

فاجأني ذات صباح "محمد بيه" حين اتصل بي، وطلب مني الذهاب إليه عند بيته، فذهبت..

– ازيك ياض.. غطسان فين؟

– يا باشا أنا تحت النظر، بس مفيش حاجة بإيدي، الشيخ طردني من زمان..

– واللي يطرد واحد يجوزه بنته؟

– أنا؟ أتجوز بنت الشيخ؟ يسمع من بقك ربنا.

اضطربت أعصابي وفقدت السيطرة على نفسي، فبدأت أطرافي ترتعش..

– مالك ياض هاتشخ على نفسك ليه؟ إلا انت فاكر إن في حاجة تخفى عني؟

– لا يا باشا لا سمح الله..

– أمال ما جيتش ليه تقول لي إنك مرافقها؟

– يا باشا وده إيه دخله....

– انت اللي هاتعرفني إن كان ليه دخل ولا لأ؟ أعرف مقامك يالا بدال ما احبسك ما اطلعك من الحجز بقية عمرك.. ده إن عشت..

– عارف يا باشا.

– تجري دلوقتي على بيت الشيخ وتجيبلي البت ف إيدك وانت جاي

– بس يا..

شخر قبل أن أكمل الجملة، ثم هدأ ثانية وقال:

– مابسِّش.. واجري من قدامي عشان ما امدِّش إيدي عليك.

رحلت مشتت الذهن لا أعرف ماذا أفعل، جلست على حجر أفكر في وضعي، وأن الشيخ آجلا أو عاجلا سيطردني من المأوى، كما أن ابنته لن تخرج من البيت دون علمه، ومحاولة أخذ موافقته جنون، ومحاولة التهرب من "محمد بيه" هي الجنون ذاته، فقررت ترك كل هذا والبدء في مكان جديد.

٣-

لا أعلم متى تحديدًا فقدت السيطرة.. تركت قريتي وجئت لأنبهر بالقاهرة، لم أنبهر، جئت كي أحظى بحب فتاة وحيدة، و لم أشترط شيئًا، كل ما تمنيته علاقة حب.. عمل كي أرفع العبء – أو جزءًا منه عن والدي.. أصدقاء كي أتمكن من مواصلة الحياة، كان أمثالي من سكان الأقاليم يتعرفون إلى بعض ولا يختلطون بالآخرين، إلا إذا كانوا يحملون الكثير من المال، لا أعلم إن كان ذلك عنصرية من الآخرين، أم شعور بالنقص فينا، كنا مجموعة صغيرة كئيبة من سكان الأقاليم، نجالس بعضنا البعض كي لا يجتمع على أحدنا الغربة والوحدة والعَوَز، البنات القلائل اللاتي يتعامل بعضنا معهن لا يتعدون كونهن زميلات، وحين أنبهر بفتاة تمر أو تضحك، أو يملأني الحقد على شاب يداعبها، فأتذكر نصيحة زملائي بأن أبقى بعيدًا عن هؤلاء؛ كي لا أعرض نفسي للسخرية، كنت أعرف أن العمل في القاهرة ليس شيئًا يسيرًا، فلم أكن قادمًا من المريخ، وفوجئت بأني حصلت على عمل من أول محاولة.. وتركته، وحصلت على آخر وتركته، وآخر... وكنت أتقبل أي راتب، إلا أن المذهل دائمًا

هو كيف يمكن لصاحب العمل التلاعب والكذب والتلفيق كي يقتطع جزءًا – كبيرًا أو صغيرًا – من راتبك، وكيف يرتقي زملاؤك العاملون بمجرد قدومك فيصبحون مشرفين، وكيف يستمتع الزبائن بأن يشعروا بأنهم بشرًا أفضل وأهم منك، وقابلت مصاعب كبيرة في التعلم من أولئك الذين يجب أن أتلقى منهم العلم، اضطربت أفكاري، وتشتت لفترة، وكدت أكتئب، وتوقفت عن الذهاب إلى الكلية، فلا علم بها ولا أصدقاء، حتى تعرفت على بعض الرفاق الذين لا يهمهم موطني الأصلي، أو درجة إتقاني للإنجليزية، أو ملابسي.. كي نجتمع ونضحك وندخن معًا، واندمجت معهم تمامًا، لكني كنت أشعر أن شيئًا ما ينقصني، في طفولتي تفوقت في الدراسة، وأحببت القراءة، لكني أخفيت هوايتي، ولا أعلم لم صار طبعًا أصيلًا في نفسي أن أشتري الكتب سرًا وأخبئها في ملابسي أثناء سيري في الشارع، وإن فاجأني أحد وأنا أقرأ خبأت الكتاب، فكان من الطبيعي أن أخبئ كتاباتي، أدركت مبكرًا أني لن أجني شيئًا من دراستي تلك، لكني قررت أن أستغل وجودي في القاهرة وأنتقي أفضل كتاباتي كي أخرجها للعالم.. واستيقظت يومًا منتعشًا، اغتسلت وصففت شعري، سمعت غناء العصافير الشريدة حول حيِّنا البائس فتفاءلت بالنعيم، رأيت المشهد كاملًا، ورأيت في الكتابة الخلاص، كما كان خلاصي القراءة في طفولتي، حملت أوراقي وسرت في الشارع المزدحم، رأيت في العدد عزوة، تجاوزني أحدهم في تدافعنا المحموم تجاه الباب المنزلق للعربة البيضاء، فعدلت وضعي وهجمت على الباب فتجاوزته، وكانت محاولاته البائسة خير دليل على انتصاري، أخبرني صوت السائق بالأجرة الجديدة، فرأيت في الفقر حافزًا دفعني للاعتراض حتى على السيد السائق، واشتركت الأصوات وتشابكت، لكني تمسكت بموقفي حتى امتثل الرب المنزَّل في صورة القائد الأعلى للميكروباص، رأيت الفقر ميزة، والهزيمة إلهامًا، والوحدة فرصة للتفرغ.

ووصلت أخيرًا، عدلت ملابسي.. رتبت أفكاري.. واستأذنت في الدخول.. ودخلت، تمامًا كما تخيلت.. المرأة الجميلة على اليسار، والعجوز الثائر جوارها، والوجه المتسامح الطيب أمامي، ورحلت صفر اليدين، لكن على أمل بالعودة، جمعت القروش القليلة أيامًا وأيامًا كي أنفذ مطالبهم المبدئية، وعدت إليهم، وخرجت على وعد بأن يأتيني الرد بعد أسبوعين، خرجت مملوءًا بالأمل..

عامان و لم يأت الرد، والأمل أجمل من أن أطلقه، لكن كلما زاد عمره فقد جماله، بل فقد عقله، وارتاب حول أهدافه وأسبابه، لكنني اعتدت الحفاظ عليه، وسقطت في لعنة اللعنات.. اللعنة.. القاهرة.. الانتظار.

كان تصوري خاطئًا عن كل شيء في تلك المدينة المسخ، وبينما أصدقائي لا يجمعني بهم سوى الحشيش والإناث، حلم يثير في نفسي الحسرة، والعمل يزيد العبء، والتعليم.. تم فصلي نهائيًا من التعليم، وكان علي أن أواصل العيش في القاهرة كي لا أفقد الأمل الأخير، تركت السكن الجامعي الخاص بجامعة حلوان، وبحثت عن مسكن آخر يناسب دخلب الضعيف، واختصرت حياتي في قضاء الوقت والانتظار.. وحيدًا.

٤

الوحدة ذلك الشعور القاسي بانعدام القيمة...

استيقظت ذلك اليوم متشائمًا، رأيت العصافير تأكل الروث فوق أرضية حيِّنا البائس، فاغتسلت، ورأيت الزحام يدفعني تجاه المسخ، فلم أرضخ، وانقلبت على تلك الوجوه البائسة ذات الطابع المسالم الهادئ، كل أولئك الملعونين باسم الصبر، وكل أولئك المرتزقة، قطيع يتحرك خلف الإله أيًّا كان اسمه أو نوعه أو نواياه، فانفعلت، وفي جمع من الناس هتفت ولعنت الإله..

لم أدرِ إلا واسمي يملأ حلق أحدهم، وتناقلوا الصراخ بين الأفراد، وأصابع تشير إلي.. ترقبت.. فقدت الإرادة تحت قبضاتهم، وفقدت الرؤية تحت العُصابة، سمعت أصوات الألم في الحجرات من حولي ولا يغيثهم أحد، فلم أعرف للصراخ معنى، ولا للكلام طعمًا.. خرجت للنور بعد مدةٍ، وحينها كنت وحدي تمامًا، أتخبط في الطرقات، هائمًا.. شريدًا.. منهكا.. تدافعنا أمام الباب المنزلق للعربة البيضاء، وكان شاب سريع قد سبق الجميع، فدفعته.. فعادت إلي يداه تنحيني جانبًا، وحين

فاجأنا السائق – القائد – بالأجرة الجديدة امتثلت واعترض البعض، بينما الإرهاق يمتص عصارة جسدي، فدفعت من جيبي الفارق.. وقتها فقط أدركت كيف شاخ الأمل داخلي، فتحول إلى مسخ في تلك الشقة الحقيرة، بعدما تخليت عن القراءة والعمل، وفصلت من التعليم، وخرجت من الحجز، أدركت أن رد دور النشر لن يأتي ولو انتظرت مائة عام، فأطلقت الأمل الأخير.. وحدي تمامًا في مواجهة عدو لا ينتهي اسمه الوقت، لا يساندني سوى جوان، وبينما أبحث عن جوان حشيش متأكد من أني خبأته هنا أو هناك، وجدت ثلاثة كشاكيل تغطيها طبقات من التراب، وكان التراب هو الشيء الوحيد الذي لا ينفد من تلك الشقة، تركتهم وأكملت بحثي عن الجوان، وحين يئست من العثور عليه، وبدأ إحساس الملل يتسرب إليّ من جديد، قررت أن أدفع عن نفسي تأنيب الضمير ومراجعة الخطة، أو احتمال العودة إلى البلد، وبدأت أقرأ في الكشاكيل...

الكشكول الثالث

تسكعت أيامًا بين الشوارع والخرابات والنوم على الأرصفة وفي المساجد، و لم يكن يشغلني سوى أخذ العشرة آلاف جنيه – مستحقاتي – من المقاول، فأخذت أطارده طوال اليوم.. كل يوم.. حتى عثرت عليه...

– مالكش حاجة عندي يالا.

كانت ملابسي متسخة، ولحيتي وشعري غير مهذبين، غير بعض الإصابات نتيجة للتشاجر مع كائنات الليل من كلاب وبشر، لم أستوعب في البداية، فأخرجت وصل الأمانة المهترئ..

– أمال ده إيه؟

– ده تبله وتشب ميته، أو تعمله قرطاس وتحطه فـ..

لم يكمل جملته حتى أدركت أنه لا ينوي الدفع، كان يجلس على كرسي خشبي أمام قطعة أرض فضاء يتحرك بها مجموعة من العمال،

ويجلس جواره عجوز بجلباب ونظار يبدو أنه مالك تلك الأرض والعمال، ما إن أدركت أنه لا ينوي الدفع حتى ارتميت عليه، وهويت به على الأرض، قاومني قليلًا، لكني تمكنت منه، وقبل أن أبدأ في تشويهه تذكرت حادثة الأستاذ سعيد، حين ضربته مطالبًا بحقي فارتميت في الحجز، وكانت ظروفي مشابهة في تلك الأيام؛ فلا عمل ولا مأوى، فتوقفت عن ضربه وقلت له:

– دي فلوسي.. وهاخدها ذوق أو عافية..

– انت حرامي ومالكش عندي مليم..

جاء العمال يركضون، كما تجمع عدد من المارة، فتركته ورحلت، ولحق بي العجوز ذو الجلباب والنظارة..

– انت ليك عنده كام يا ابني؟ أنا عارفه ياكل مال النبي..

– عشرة آلاف جنيه يا حاج.

– معاك حاجة تثبت؟

– معايا وصل أمانة..

– طب ما تودِّيه للحكومة.

– اللي زيي مالوش ديَّه عندهم، بدل ما يوجعوا دماغهم هيقطعوا الوصل ومات الكلام.. وإنَ نصفوني هاينصفوني بعد سنة، وأنا في عرض جنيه..

– باين عليك.. بص يا ابني.. أنا هاعمل فيك معروف.

– خدَّامك يا حاج.

– هات الوصل ده.. وخد خمسة آلاف جنيه.

– ليه.. وأنا هاعجز أجيب حقي منه؟ وانت بتقول معروف؟ تاخد مني خمسة آلاف جنيه وتقول معروف؟

– صلي ع النبي يا ابني واسمعني.. الواد ده شغال معايا له زمن، وطول عمره آكلني، وإن فضلت وراه سنين مش هاتطول منه ملين أحمر.. أنا هاعرف أطلّع منه الخمسة آلاف اللي هاعطيهملك لا زيادة ولا ناقص..

– بس شوية أوي الخمسة يا حاج.. خليهم تسعة.. ده أنا صاحب حق..

– أبقى بظلم روحي.. أنا هاطلّع الخمسة من حبابي عينيه وربك هو العالم.

دارت بيننا المفاوضات في الشارع لزمن طويل، وأدرك من خلال الحديث أني بلا مأوى أو عمل، فقدم العرض المجحف الذي لم أقدر على رفضه...

– هتشتغل عندي.. وهاسيبلك مطرح تقعد فيه.. ولا هاسألك بطاقة ولا شهادة.. وهادِّيك فوق ده وده ألف جنيه هتمسكهم في إيدك دلوقتي.. ومتدِّينيش الوصل يا عم قبل ما تسكن وتنزل شغلك.

– يا حاج ألف بس؟ طب التسعة الفرق؟!!

– ما تقطعش برزقك.. آخر كلامي.. مطرح نضيف ولقمة عيش وباكو في إيدك.. وبعدين انتِ لو خدت العشرة كاملين هاتعرف تسكن بيهم؟ كام شهر؟ ده أنا هاسكنك وهادِّيك آخر الشهر مش هاخد منك..

وافقت وأمضيت اليوم كله إلى جواره، واصطحبني عند انتصاف الليل إلى منطقة نائية، بها عمارات قصيرة ملونة بمئات الألوان، وشوارعها غير ممهدة، والأطفال يركضون في الشارع أنصاف عراة من أعلى أو من أسفل، صعدنا إلى آخر طابق في إحدى العمارات، ثم أقام السلم الخشبي وتسلقه أمامي، لأجد نفسي فوق سطح بلا سور، ولا يوجد عليه سوى مجموعة من أطباق الاستقبال "الدِّش"، ومكعب خرساني له باب موصد، أخرج المفتاح من بين عشرات المفاتيح، ودخلنا للحجرة، كانت مظلمة تمامًا، يملؤها التراب، بها أقفاص يملأها القش، وبعض الأجولة فارغة وبعضها مملوء بمخلفات البناء، وصناديق الحاجة الساقعة يعشش عليها العنكبوت، بالإضافة إلى أنبوبة بوتاجاز تالفة.. أضاء اللمبة الصفراء المتدلية في منتصف الحجرة فرأيت كل ذلك، لكني حمدت الله – وبصدق – على المأوى، سلمته الوصل ونمت فوق الأجولة الفارغة، ولم أبالِ بتحرك الكائنات الدقيقة فوق جسدي، فقد اعتدت ذلك منذ كنت طفلًا، نمت باسترخاء، وحين استيقظت اكتشفت أني لم أنم بهذا القدر من الهدوء والسكينة منذ أبلغت عن عبد المقصود.. وتسلمت العمل كحمال.

تقف السيارة النقل في آخر الطريق الواسع، وأذهب برفقة البواب والعامل لنقل القصب إلى المخزن الملاصق للمعصرة، والتي تبعد عن مكان إقامتي خطوات قليلة، كان المخزن والمعصرة والعمارة ملكًا للرجل الذي

أخذ الوصل، واسمه الحاج عبد الله، وسمعته طيبة في المنطقة كرجل ثري وصالح، تعرفت على العامل الوحيد في المعصرة ومحل عصير القصب المرفق بها، و لم يكن يدخن الحشيش أو حتى السجائر، لكني وجدت في رفقته رحمة من العزلة والوحدة، كنت أنقل معه القصب إلى المخزن، ثم نقف ممسكين بعود القصب مائلًا، وننحني بالسكين الغليظ عليه من أعلى إلى أسفل وبالعكس، حتى يتم تقشيره، فننقله إلى الزاوية الأخرى، حيث الفصب مستعد للعصر، وفي أثناء ذلك نتحدث، لم يكن ذلك العمل مرهقًا بقدر ما هو ممل، خاصة عندما تطفح المجاري في المخزن، ونقف لنقشر القصب في تلك الرائحة الكريهة المكتومة، والتي تذكرني دائمًا برائحة الحجز الذي قضيت فيه – على أقل تقدير – ثلاثة أيام، لكني ما زلت أذكر كل لحظة بتفاصيلها كاملة، ينتهي عملي حين أفرغ من القصب، أو أقشر كمية تكفي العصير لليوم، و لم تتجاوز مدة عملي الثلاث أو أربع ساعات في أي يوم؛ لذلك كنت أذهب لأقف في محل القصب بحجة مساعدته، لكن الهدف الحقيقي كان اصطياد أنثى مثل هند، أو شاب أشاركه جوان، وكنت أتمنى أن نتبادل الأدوار، فأتعامل أنا مع الزبائن، لكني أيقنت سريعًا أن تقشير القصب أكثر تسلية وإثارة من بيع القصب لأطفال عراة ونساء يشربن من خلف النقاب، لم أكن أعمل بشكل متصل، فقد أقشر لمدة ساعة وأتوقف، ثم أعود وأتوقف، كما لم يكن العمل يوميًّا؛ فأحيانًا نقشر كل القصب قبل أن تصل العربة النقل بيوم أو اثنين؛ لذلك وجدت الوقت الكافي كي أتابع مصارعة المحترفين على المقهى أيام الثلاثاء والخميس والجمعة والسبت، وفي باقي الأيام أكتفي بمخاطبة خَلَف – العامل، أو الجلوس وحيدًا على المقهى، وكل أول شهر أقبض مائة وثمانين جنيهًا من البواب المسئول أمام الحاج عبد الله عن العمارة والمعصرة، كانت حياتي هادئة، بل كانت مملة، إلا أني لم

أفكر للحظة أن أتمرد أن أغير شيئًا، وكل ما كنت أفعله هو قضاء اليوم بأقل التكاليف؛ أي ما لا يزيد عن خمسة جنيهات، كي أدخر ثلاثين جنيهًا أضيفها على الألف آخر كل شهر، فكنت أشتري بعد منتصف اليوم نصف علبة سجائر بجنيه ونصف، وآكل طبق فول بالبيض بجنيهين، وكوب شاي على المقهى بنصف جنيه، وفي العشاء أبدل بين نصف جنيه جبنة، ونصف جنيه طعمية، إلى جوار النصف جنيه عيش.

لم يكن للهاتف الذي أحمله شاحن، كما لم أنوِ مكالمة أحد؛ فقررت بيعه، ويوم أن بعته بستين جنيهًا كافأت نفسي بطبقَ كشري للغداء، وعلبة سجائر كاملة، وزجاجة حاجة ساقعة على المقهى، وثلاثة أرغفة كبده وثلاثة سجق في العشاء، وهكذا أنفقت ما يزيد عن العشرة جنيهات في يوم واحد؛ فارتعبت وادخرت الخمسين الباقية كي لا أنفقها بمثل هذا السفه، كنت أقضي أغلب وقتي في الشارع، وحين أصعد لغرفتي أنوي النوم، لكنه يجافيني أحيانًا، وتمر في رأسي الأحداث والذكريات والوجوه.. أبي الذي مات قبل أن يعرفه أحد، أمي التي لم تفعل شيئًا طوال حياتها سوى أنها أنجبتني، سيد جبنة، الشيخ صابر، رامي، أشرف، وعلي الذي بدأ معي من الصفر، فتزوج وأنجب وملك مالًا وأشياء، وبقيت أنا في الصفر، "محمد بيه" ذلك المترف ذو الوجه النحيل الناعم والسيارة الحديثة، ولولا وظيفته لما تجرأ برفع صوته عليَّ، لكنه بيه، ويدخن المخدرات علنًا في أي مكان، ولا يدفع ثمنًا لها، هند، سيادة اللواء عماد باشا، من يملك كل شيء.. مالًا بلا حدود، سلطة بلا حدود، وهيبة، وصوتًا يخيف أمثالي ممن لم يفعلوا شيئًا في حياتهم، ويملأهم الخوف من الجميع، في صغري توهمت أن موهبتي في ذراعي، وبعد زمن وجيز تيقَّنت أني بلا موهبة أو ذراع، يستخدمني الجميع.. مجرمين أو حكومة، فقراء وأثرياء، أنا

لم أكن أيًا منهم، و لم يشدني أي اتجاه سوى الفقر، الفقر الذي لازمني أغلب فترات حياتي، و لم أتعظ، و لم أدرك أن تلك إشارة من الله على سيري في الطريق الخاطئ، كم كنت سعيدًا حين كنت أعمل مع الأسطى حسين ونصلي الفجر والعشاء يوميًا، كم كانت أيامًا جميلة وهادئة، تشبه تلك الايام التي قضيتها برفقة ابنة الشيخ، حين كانت المائة جنيه في جيبي دائمًا، والمخدر يعبث بأفكاري، قبل أن تفتح هي – بقميص النوم الذي خصصته لي وحدي – الباب، انتابتني حالة من الكآبة لأيام طويلة، فتركت لحيتي وحلقت شعري والتزمت بجدولي، لكنني بدأت في الصلاة، و لم يكن يعنيني من تلك الحياة سوى جمع المال، وتعسفت في ادخاري، حتى مرت عليَّ أيام أنفق نصف جنيه للسجائر، وجنيهًا للطعام، ولا أنفق مليمًا آخر، حتى جاء رمضان.. فامتنعت عن التدخين، وأفطرت في موائد الرحمن أرزًا وخضارًا وسلطة دائمًا، ولحمًا أحيانًا، توقفت عن متابعة المصارعة والجلوس على المقهى، لم أنفق مليمًا واحدًا طوال الشهر، حتى جاء العيد فأعطاني البواب خمسين جنيهًا فوق راتبي كعيدية من الحاج، فانتعشت وعادت إلي البهجة التي افتقدتها طوال الشهر المنصرم، فاشتريت غيارات داخلية وقميصان وبنطلون، حلقت لحيتي، وأكلت كبدة وسجق، وشاهدت فيلمًا إباحيًا على المقهى مقابل خمسة جنيهات، واشتريت ربع قرش، وابتسمت لي الحياة من جديد، وقضيت يومًا سعيدًا بعيدًا عن الهم، والتفكير في الموت، والذكريات والوجوه، فتوقفت عن الصلاة.

حين دق الباب في هذه الساعة المتأخرة من الليل لم أكن مطمئنًا، فلم أعتد أن يطرق أحد بابي أصلًا، فما بالك والساعة قد تجاوزت الثالثة فجرًا؟

كنت قد انتهيت من عد النقود التي وصلت إلى ألف وتسعمائة وثمانين جنيهًا، حين أذنت لعلي بالدخول كنت أحمل سكين تقشير القصب، وكنت قد وجدت في الغرفة بعض الأشياء المفيدة كالجنازير والأقفال، تركت السكين والنقود في الغرفة، وأغلقت جميع منافذها بالجنازير، وألقيت السلم الخشبي المزدوج على جانبه، واتجهت إلى العنوان الذي وصفه علي، كي أجد الحشيش..

في أول الطريق تلاعب بي الشك، لكني صممت أن أكمل الطريق، إلا أن فكرة أن يأتيه من ينصب السلم ويطفِّش الأقفال، فيخرج علي حاملًا نقودي، غير أن المأوى الذي دفعت عشرة آلاف جنيه ثمنًا له سيصبح مكشوفًا، نزلت من السيارة الأجرة وركضت في اتجاه عمارة الحاج عبد الله، لم أتوقف لحظة حتى أقمت السلم الخشبي ووجدت الجنازير محكمة..

دخلت فوجدت علي نائمًا، فغيرت خطتي وكبلته بالجنازير من يديه إلى أسياخ النافذة التي ينام تحتها، استيقظ حين كنت أضع القفل الأخير بين الحلقات الملفوفة حول معصمه..

– ليه يا غالي؟

– أنا عمري ما ارتاحتلك يا علي، وانت مافيش من وراك مصالح..

– بس أنا قلتلك على اللي فيها..

– مش هاحلِّك قبل ما اعرف كل حاجة بالضبط.

– اسأل على اللي انت عايزه.

– إيه اللي رماك عليَّا تاني؟ وعايز مني إيه؟

– يييييييييييييييه.. ما أنا قلت لديك أمك من شوية.

– وانت إيه اللي يخليك تعمل حاجة من ورا الشيخ وهو معيشك في نعيم..

– نعيم؟

– مطرح وجوازة وعيال.

– وده اسمه نعيم برضه؟ إحنا غلابة زي بعض.. يا غالي ده أنا عمري ما شفت بحر...

– بس ما تقولش زي بعض.

– طب لو الشيخ طردني، ولا مبقاش محتاجلي، أروح فين ولا اعمل إيه؟

– انت دراعه اليمين ما يعملهاش معاك.

– طب لو هو نفسه وقع؟

– يعني إيه وقع؟

– يعني عماد بيه رماه، وكلها يومين ولا تلاتة وتلاقيه محبوس.

– آآآآه.. ده كلام تاني كده.. إيه اللي وقعهم في بعض؟

– تفهمش اختلفوا على إيه.. بس الشيخ راح ع القسم مرة ورجع بيقول لي إن اللواء مش هيرتاح إلا أما يحبسنا واحد واحد.

– طب والمخدرات دي وراها إيه؟

– دي حاجة كان المفروض أجيبها من الفيوم ع الزمالك واقابل عماد بيه هناك، بس الفار لعب في عبي، وخفت ليسلموني بالحاجة والبسلي خمستاشر سنه اتجار.. قمت مخبِّي الحاجة ورايح ع الشيخ، لاقيته سفر حريمه وبناته البلد، وبيلم ف حاجته عايز يسافر برًا مصر، نزلت معاه لقيت البوكس قدام البيت، فجريت وجري ورايا اتنين أمَنا، خلعت منهم بعد ساعة، جيت أروَّح بيتنا لقيت مخبر في الشارع، قعدت ألف في الشوارع الليل كله، وتليفوني ضرب، لقيت واحد بيقول لي إن عماد باشا هيدّيني الأمان إن وصلتله حاجته، وإن ما وصلتش مش هيئذيك لوحدك يا أبو أسد.. كلمتين مني على كلمتين منه اتفقنا إني أبعت واحد بالحاجة يقابل واحد من رجالة الباشا..

– وجاي لي أنا عشان أسلم نفسي مع الحشيش بدالك وتخلع انت ومراتك والعيال.

– تسلم نفسك إيه بس؟ وبعدين انت لا تعرف حاجة ولا تفرق فحاجة.. ما تلزمش حد يعني.. انت هاتسلمه الحاجة وأنا هاخلع.

– أكسب أنا إيه ف كل ده؟

– كده انت بتكلم في الصح.. هدِّيك خمسة آلاف جنيه.

– خمسه؟ بص يابا.. انت كده كده هاتختفي.. يبقى تسيبلي شقتك.

– شقة إيه بس.. ماهيش ملك.. هاتدفع إيجارها؟

– انت عرفت مكاني ازاي؟

– يا عم أنا عارف مكانك من أول ما الحاج عبد الله جابك هنا.. والشيخ كمان عارف.. وعارف إنك سرقته في خمستاشر.. وعارف إنك نطيت على بنته.. بس ما كانش عايز يئذيك عشان ما يقلبش الحكومة عليه.. وهما أساسًا مستنينله غلطة.

لم أطمئن لتلك القصة كما لم أطمئن لقصته الأولى، وبما أنه كان يكذب في الأولى فمن الوارد جدًا أن يكون مستمرًا في الكذب، فسألت عشرات الأسئله، وتلقيت إجابات.. فاكتملت الصورة في رأسي لأول مرة، فكل من خالف أو يريد أن يخالف القانون يتصل بالشيخ، فيذهب علي إليه ويقوم بمعرفة المطلوب، ويقوم بتحريات حول الشخص كي يدرك مدى قدرته على الدفع، ومدى خطورته إن لم تنفذ الخدمة كما يجب، وبعدها أتسلم أنا الدفعه الأولى، وبطبيعة كوني مرشدًا أبلغ "محمد بيه"، الذي يقوم بعمل التحريات والبحث حول الشخص، وإمكانية أن تمر المخالفة مرور الكرام، وإن كان ذلك ممكنًا يدفع "الزبون" المبلغ المتبقي ويتنهى الأمر، في البدء كان الأمر بسيطًا، يقتصر على حيازة مخدرات أو مشاجرة، لكن الشيخ توسَّع حتى أصبح المجرمون جميعهم يعرفونه، ويعرفون أنه الحل، وأورط شركاءه في مخالفات فاضحة، فكان من الضروري التخلص منه...

– طب ما هو هايقِر على كل اللي معاه.

– دي الحاجة الوحيدة اللي يقدر يلاعبهم بيها، ولو ماسك حاجة

عليهم فعلًا هيتعملُّه قضية فشنك كده، وياخدله سنة ويخرج يمشي جمب الحيط، ولو مافيش حاجة في إيده يبقى عليه العوض، وبعدين في ناس ليها فلوس مع الشيخ في شغله، يعني مصلحة للكل لو طلع، بس كده أو كده هو اتحرق.

– طب والمخدرات دي إيه؟

– دي آخر مصلحة عملناها مع راجل عرباوي ف طريق الفيوم، عايز يعدي حاجة، وبعد ما عدت دفع الفلوس بضاعة ومعرفناش نعمل معاه حاجة، ولبسناها، وأنا ما اعرفش عماد باشا هايعمل بيها إيه، بس هو عايزها، وانت هاتوديهاله وتاخد مني خمسة.

– طب ما آخدها واخلع.

– انت ما تعرفش حد غيري.. وبيني وبينك خمسة، فأدِّيك من غير وجع قلب، ولا تدلل على حد يشتري حشيش، ده أساسًا إن خرجت بالحاجة دي من الزمالك.. الرجاله مفتَّحة عينها أوي، ودي مش حاجه صغيرة تكمَّرها في اللباس..

خرجت مرة أخرى دون أن أهتم بحبس علي أو تكبيله، ذهبت ووجدت السيارة العتيقة في الشارع الجانبي الذي وصفه، وأسفل السيارة كيس قمامة أسود مربوط بإحكام في "الشكمان"، أخرجت الكيس وأخرجت من داخله كيسًا آخر بني اللون يحمل اسم أحد محال الوجبات السريعة، وداخله البضاعة..

تنقلت في الشارع أفكر كيف يمكن أن أستفيد بهذه الكمية المهولة من الحشيش التي هبطت علي من السماء، أين أذهب به إن لم أعد إلى حجرتي؟

وكيف أبيعه دون تقطيع؟ ومن أعرفه ويمكنه أن يساعدني؟ حتى بدت نظرية علي وهي أن أعود وأقبض الخمسة نظرية صائبة.. إلا أن اسم عصام السيد قفز إلى رأسي، فتذكرت الحادثة حين بعثني علي لأسأل عن هذا الشخص، فوجدت نفسي أواجه عصابة أوسعتني ضربًا، فذهبت إلى شارع فيصل، ولم أتعرض لأي تفتيش أو سؤال من الشرطة، ولم أعان حتى وجدت أول علامة تذكرت بها المكان؛ فالشارع عبارة عن خطَ لا نهائي من حيث الطول والازدحام، كان في الحقيبة الورقية حوالي سبعون فرش حشيش مكدسة، والفرش لايقل سعره عن ألف ونصف، إذن فالحصيلة حوالي مائة وخمسة آلاف على أقل تقدير، سأتنازل عن خمسة عشر ألفًا لعصابة "عم عصام"، وآخذ التسعين الباقية، هكذا فكرت، لكن بعد أن وصلت وناديت على عم عصام وبدأوا بالظهور، أخبرتهم بأني أعرفهم، وبأني أريد لهم خيرًا، واجتمعت بقائدهم، انتهت المفاوضات باتفاق آخر، وكان مرضيًا.

استأجروا لي شقة مفروشة إيجارها مائتي جنيه في الشهر – هم يدفعونه، ويأخذون مني الفرش الواحد بثمانمائة جنيه، كانت الشقة رائعة بها شرفة وحمام ومطبخ، بالإضافة إلى مجموعة كراسي متناثرة، وسريرين، ناهيك عن الثلاجة والتليفزيون ومروحتي السقف.. كانت نعيمًا، وكنت أنفق ببذخ شديد، ووصل إنفاقي في الشهر الواحد إلى ثلاثمائة جنيه، وكنت أدخر البقية، تلاعبوا معي قليلا في المبالغ المتفق عليها، وحاولوا سرقة المخزون أكثر من مرة، لكنهم اصطدموا دائمًا بدفاعي الشرس، وكانوا يظنون أني أملك كمية أخرى مساوية لهذه أخبئها؛ لذلك كانوا دائمًا يحافظون على العلاقة الجيدة بيننا، وفي خلال ثلاثة أشهر توطدت علاقتي بهم، وارتفع معدل البيع من فرشين كل شهر إلى أربعه أو خمسة، وأقمنا

سهرات صاخبة في تلك الشقة، وسكرنا وحششنا مرارًا، وكلما وقعت عاهرة في يد أي منهم جاء بها وتقاسمناها، استمر هذا الوضع شهرين آخرين، وكان معدل البيع يتضاعف بسرعة جنونية، حتى أني في الخمسة أشهر تخلصت من خمسين فرش حشيش، أخذت في مقابلها إيجار الشقة ألف جنيه في الشهور الخمس، وأنفقت ألف وخمس مئات، وادخرت ثلاثين ألفًا، وتحايلوا عليَّ في حوالي عشرة آلاف جنيه، كانوا ستة أفراد جميعهم أصغر مني، أما باقي العصابة فلم يكونوا متورطين في الإجرام لهذه الدرجة، فاكتفوا بتدخين الحشيش أو المشاركة في شجار، كانوا ستة أفراد، وكان القبض على أحدهم كفيلًا بأن يتوقف نشاطهم ويختفوا.

وها أنا ذا، أجلس وحيدًا في تلك الشقة الفارهة التي تمتص مائتي جنيه من دمي كل شهر، أملك ثلاثين ألفًا، أنفق منها في أضيق الحدود، وعشرين فرش حشيش أنتظر أن يعود الشباب كي يخلصوني منها، لكني أدخن منهم كلما سمح لي ضميري بحرق مدخرات عمري، أخرج من تلك الشقة فقط لشراء الطعام والتبغ كي لا أصطدم بوجه أحد اعدائي الكثر.. الشرطة، الشيخ، وأشرسهم الآن دون شك علي..

يأكل الملل أطرافي منذ عام، وحيدًا في ذلك المكان التعس، لا أنفق شيئًا، وكلما أنفقت جنيهًا ازداد شعوري بالكآبة، ولا أدخن مدخراتي، ولا أجد ما أفعله.. حتى إني بدأت الكتابة...

الفهرس

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	-١-	٧
٢	الكشكول الأول	٩
٣	-٢-	٥٥
٤	الكشكول الثاني	٥٧
٥	-٣-	١٣٩
٦	-٤-	١٤٣
٧	الكشكول الثالث	١٤٥
٨	الفهرس	١٥٩

خالد أحمد

AL-SARSSARIA

السرسرية

أدهشني إحساسِ الألم الجديد، وأجبرني على التراخي، فانتزعها وهمَّ بغرزها في مكان آخر في جسدي، فقاومت بكلتا يدي بينما أتلقّى من يده الحرة صفعات، ومن أقدامه ركلات، وفي لحظة رديئة فقدت القدرة على المقاومة، وخنقني التراب، وانهكني الدم السائل من قدمي، فاستسلمت.. بحث عن أي شيء بحوزتي فوجد أكثر مما يتمنى..

دار المصري للنشر

تصميم الغلاف/عبد الرحمن الصواف